نقد العقل العراقي

قراءة في المشهد العقلي للمجتمع العراقي عبر مختلف المراحل التاريخية

باسم محمد حبيب

مقدمة

لماذا نقد العقل العراقي ؟

نشرنا قبل عام تقريبا مقالة حملت عنوان : " نقد العقل العراقي" [1] ، درسنا فيها المشهد العقلي للمجتمع العراقي والعوامل التي أسهمت في تكوينه عبر مختلف المراحل التاريخية ، الا أننا وجدنا أن هذه المقالة لم توفي الموضوع حقه ، إذ لا يمكن تناول المشهد العقلي العراقي في مقالة صغيرة ، لذا كان لابد من وضع دراسة اخرى اكثر شمولا وتفصيلا ، تكون قادرة على لفت انتباه المعنيين لهذا الجانب المعرفي ، الذي نرى أنه يحتاج أكثر من سواه للبحث والدراسة لكي يتكامل فهمنا للواقع العراقي الممتلئ بالعقد و التناقضات .

لكن على الرغم من أن المقالة كانت موجزة ومقتضبة نوعا ما ، إلا أنها جهدت لعرض ما عدته الخطوط العريضة أو الضرورية لأي دراسة يمكن أن تتناول هذا الأمر في المستقبل ، ومن ثم بدأنا انطلاقا من تلك المقالة بالإعداد لمشروع دراسة العقل العراقي الذي نعلم جيدا صعوبته ، لاسيما مع قلة المصادر التي نعتمدها في دراسته ، وندرة الدراسات التي اختصت بهذا الجانب المعرفي مما يمكن أن نستند إليها ونسير على هداها ، بإستثناء دراسات عربية [2] ربطت المشهد العقلي في العراق بالعقل العربي ، لأن كون العراق بلد عربي لغة وثقافة وتاريخا ، فإن هذا يجعل من نظرته الفكرية ونمط تفكيره شبيها بما موجود في البلدان العربية الأخرى ، ولا حاجة بنا للقول أن في هذا الامر مغالطة كبيرة ، وذلك لما بين العراق والبلدان العربية الأخرى من اختلافات ، على الرغم من وجود مشتركات أيضا ، إلا أننا لا يجب أن نبني فقط على المشتركات وننسى الاختلافات التي قد يكون أثرها كبيرا

---

[1] . باسم محمد حبيب ، نقد العقل العراقي ، صحيفة الصباح ، العدد : ٩٣٣ في ١٢ أيلول ٢٠٠٦

[2] . محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، دار الطليعة ، (بيروت ١٩٨٤) .

ومؤثرا ، ومن ثم فإن هذا النوع من الدراسات قد لا تكون مفيدة إلا في دراسة المشتركات التي تجمع بين العقل العراقي والعقل في البلدان العربية الأخرى ، وليست مفيدة في دراسة ما سوى ذلك من الجوانب التي لها علاقة بالمشهد العقلي العراقي الذي نروم دراسته .

أما الأسباب التي دفعتنا لتنكب هذه المهمة فهي كثيرة ومتنوعة : منها رغبتنا في فهم الجوانب الفكرية التي لها علاقة بالمشكلات التي يعاني منها الواقع العراقي ، مع استشراف ابرز السبل التي تسمح بمعالجتها ، لأدراكنا أن أي تغيير لا يؤثر في العقل والوعي و نمط التفكير ، لن يكون إلا تغييرا سطحيا ، ولن يخرجنا من الدوامة التي كنا ندور فيها قرونا طويلة ، ما يستدعي أن يكون التغيير جذريا ويمس القوالب العقلية بشكل أساس .

ومن ثم نأمل أن تنجح هذه الدراسة في زعزعة المسلمات التي دأب العقل العراقي على التمسك بها ، لاسيما تلك المسلمات التي تتمترس خلف قلعه الدين الحصينة ، سواء أكان ذلك في علاقتنا بالآخر المختلف أو في توجسنا من الجديد ، الذي تتلبسه دائما مفاهيم مثل الضلال والحرام والمكروه والباطل والبدعة ... الخ ، التي هي منتجات عقلية مزيفة مصدرها ذلك الوهن الفكري القابع في أعماق العقل ، فهذا هو الذي دفعنا إلى وضع هذه الدراسة التي نتمنى أن توفي الموضوع حقه وتحقق ما نشدت اليه بالاتجاهين المعرفي والاصلاحي ، وحسبنا إننا نمهد الطريق لدراسات أخرى أوسع مضمونا وأدق طرحا منها ، لان النجاح قد لا يأتي دفعة واحدة ، بل يحتاج إلى جهود كبيرة وخطوات متتابعة ، متمنين بأن تكون هذه الدراسة الخطوة الأولى في الاتجاه الصحيح ، أتجاه إنتاج وعي جديد يؤمن بالحداثة والتغيير ، وشكرا ...

باسم محمد حبيب

العراق

٢ | ١ | ٢٠٠٨

العقل العراقي : المفهوم . السمات . المسيرة

مفهوم العقل

اختلفت الفلسفات المعاصرة في تعريفها لمفهوم العقل : بين من عدته جزءا معنويا خارج إطار الوظائف المرتبطة بالجسد و مكوناته و حاجاته المادية ، وبين من رأته صورة أجمالية لما تؤديه الأجهزة العصبية من وظائف لخدمة الجسد ، فالشيء الوحيد الذي يوجد هو الجهاز الدماغي الذي يحتوي على مستوى واحد من الوصف : أنتاج الشرارات العصبية ، ومستوى آخر من الوصف : حيث الجهاز واع ويؤدي وظائف عقلية [٣] كالتحليل والتركيب والحكم و النقد وما إلى ذلك .

ولأن العقل هو أداتنا لفهم الحياة وأستكشاف الجديد والمفيد والنافع والضار ... فقد أصبح مدار اهتمام طائفة كبيرة من الباحثين ، شملت دراستها جوانب مختلفة ، ليس الدراسات المتعلقة بمكنون العقل ومصدره ووظائفه العامة فقط ، بل وأثره ومساره التاريخي أيضا ، بما في ذلك الدراسات التي تركز على فعالية العقل ضمن حدود منطقة معينة ، سواء أكانت هذه المنطقة واسعة كأوربا وآسيا وأفريقيا ، أم محدودة كدراسة العقل في المنطقة العربية أو ضمن حدود بلد واحد ، مثل دراستنا هذه للعقل العراقي .

أما جدوى مثل هذه الدراسات ، فهي لكي تضعنا في صورة عن الأسباب التي تجعل الأداء العقلي مختلفا و متباينا بين منطقة وأخرى ، ولماذا توجد مجتمعات متقدمة ومتطورة وأخرى متأخرة ومتخلفة ، فهل الأمر مرتبط بالأداء العقلي وتباينه من منطقة إلى أخرى ؟ أم لعوامل وأسباب أخرى لا علاقة لها بالعقل كالعوامل السياسية

---

[٣] . جون سيرل ، العقل مدخل موجز ، ترجمة : ميشيل حنا متياس ، (الكويت) ، ص١٦٨ .

والبيئية والاقتصادية وما إلى ذلك ، وكل ذلك من أجل إيجاد الحلول للمشكلات التي نعاني منها .

العقل العراقي

الإطار المكاني للعقل العراقي يتمثل بوضوح في معظم الأرض التي تشكل العراق الحالي ، سواء أكان ذلك في الشمال أم الجنوب ، ففي الشمال ازدهرت الثقافة الآشورية ، التي تمثل الفرع الشمالي من حضارة بلاد الرافدين ، إذ لا تمثل هذه الثقافة حضارة منفصلة او مختلفة عن شقيقتها الحضارة التي نشأت في جنوب العراق ، وهذا ما أستمر عبر المراحل التاريخية التالية وصولا إلى المرحلة الحالية ، إذ ما زلنا نجد تشابها كبيرا بين المنطقتين في اللغة و العادات والتقاليد والرؤى والأفكار ونمط الحياة .. الخ ، الأمر الذي يدلل على ارتباطهما ليس فقط بإطار حضاري وثقافي واحد بل وبنمط تفكير و مسار عقلي مشترك أيضا ، على الرغم من الهجرات الكبيرة التي شهدتها البلاد عبر مختلف العصور التاريخية والتي جعلت البلد مستودعا كبيرا للأجناس والأعراق المختلفة ، وهذا يدلل على قوة العقل العراقي وعلى مقدرته الفائقة على فرض سماته ونسقه على القادمين إليه بما في ذلك الغزاة الذين لم يخلوا منهم أي عصر من العصور .

لكن هذا الأمر ليس كذلك فيما يخص المحيط الجغرافي والحضاري للبلد ، فعلى الرغم من وجود مشتركات كثيرة ، هناك أيضا اختلافات كبيرة تسمح لنا بوضع دراسات مختلفة للمشهد العقلي لكل بلد من بلدان المنطقة ، مع إمكانية جمعها أيضا في إطار عقلي يهتم بما بينهما من مشتركات ، كما في دراسة محمد عابد الجابري عن العقل العربي أو دراسة محمد أرغون عن العقل الإسلامي [٤]، أما دراستنا للعقل العراقي فتنطلق أساسا من العوامل التي شكلت الكينونة العراقية ، كالبيئة والسكان

---

[٤]. من أهم مشاريع نقد العقل الإسلامي مشروع محمد أركون الذي بدأه في عام ١٩٨٤ ، وحاول فيه معاينة تطور العقل الإسلامي ، واهم المشاكل التي واجهته خلال مسيرته الطويلة . حول مختلف أفكار محمد أركون بما يخص هذا الأمر أو سواه يمكن الاطلاع على المؤلف التالي : محمد أركون ، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ؟ ، ترجمة وتعليق : هاشم صالح ، ط٣ ، (دار الساقي ، دت) .

والحضارة والاقتصاد .. الخ ، وهي عوامل تختلف اختلافا كبيرا بين منطقة وأخرى ، ومن ثم ليس هناك ما يدعو إلى جمعها ضمن إطار مفهومي واحد كالعقل الإسلامي أو العربي ، وحتى لو افترضنا وجود عقل كهذا ، فهو لن يكون إلا عقل عمومي ينطوي على نطاق المشتركات فقط ، الأمر الذي يسمح بمشاريع اقل عمومية كمشروع العقل العراقي ، الذي يتوافر على جملة مشتركات أكبر بكثير مما في ذلك العقل العمومي [٥] ، ففيما يخص المقارنة بين العراق والبلدان الأخرى المبوبة في إطار من السمات المشتركة ، سنجد أن الاختلافات الموجودة كبيرة جدا وتشمل جوانب عدة : جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وثقافية .. الخ ، فهي كبيرة إلى الدرجة التي يصح فيها تحديد مفهوم خاص بها ، وخير تأكيد لذلك : ما عرضه الباحثين ثوركيلد جاكوبسن [٦] ولويل كوكس [٧] في دراستهما المقارنة لواقعي بلاد وادي الرافدين و وادي النيل ، إذ خلصا فيها إلى تأكيد أثر التباين البيئي في إنتاج ذهنيتين متناقضتين ، وضعهما جاكوبسن في إطار الإرهاصات الأولى للفلسفة ، وإذا كان هذا حال بلدين متشابهين في كثير من الخصائص البيئية والاقتصادية والتاريخية .. الخ ، فالتناقض سيكون اكبر فيما لو جرى مع بلدان بعيدة كموريتانيا وماليزيا وباكستان على سبيل المثال ، ما يجعلنا بالتالي متحفظين على اعتبار العقل أو الثقافة الموصوفة بأنها إسلامية أو عربية على أنها يمكن أن تجمع هذه البلدان في وحدة حضارية ومصير واحد ، بدليل ما تشهده المنطقة من حراك وإنبعاث للنزعة المناطقية وتململا من الإطار العام الجامع ، هذا ناهيك عن وجود تناقضات فكرية ونفسية كثيرة بدأنا نلمس آثارها الواضحة في أكثر من جانب من جوانب الحياة ، أما ما ينشده المنطق الطبيعي للجدل الإنساني من الوحدة والتجانس فإننا نؤكده إنطلاقا من الجدل المناطقي ذاته ، لان التراث الجماعي لمنطقتنا لم يكن تراثا سويا بقدر ما

---

[٥] . تقدم جورج طرابيشي بنقد مفصل لأطروحة محمد عابد الجابري عن العقل العربي في مشروعه الموسوم : نقد نقد العقل العربي ، مركزا على جملة من التناقضات المعلوماتية والفكرية التي وقع فيها الجابري في بحثه آنف الذكر ، ينظر : جورج طرابيشي ، نقد نقد العقل العربي ، نظرية العقل ، (بيروت ، ١٩٩٩) ؛ وكذلك الجزء الأخر المسمى ، العقل المستقيل في الإسلام دار الساقي ،(بيروت ٢٠٠٤) .

[٦] . هنري فرانكفورت وآخرون ، ما قبل الفلسفة ، ترجمة : جبرا إبراهيم جبرا ، (مؤسسة فرانكلين (فرع بغداد) ، ١٩٦٠) ، ص١٤٥ وما بعدها .

[٧] . على الوردي . طبيعة المجتمع العراقي ، (قم ، ٢٠٠٥) ، ص ٢٤ – ٢٦ .

كان هجينا ومتناقضا ، كونه أرتكز على الاختلاف والأقصاء ، على الضد من العقل الغربي الذي شادته الخبرات التي أنتجها جدل الحرية والمصلحة ، لذا لا غرابة في نجد أن قياس التقدم في مسارنا مختلفا عنه في المسار الآخر ، إذ نجد أن السير إلى الوحدة هو مقياس التقدم في المسار الغربي على الضد من قياس التقدم في مسارنا الذي يتمثل بتأكيد الخصائص الذاتية ، لذلك من واجبنا أن نشجع الدعاوى التي تضع التفكيك سبيلا للبناء أينما تكون في بلادنا شريطة أن لا تؤدي إلى نسف البناء كله ، نشدانا لأنتاج التكيف الطبيعي المفضي إلى التوحد ، هذا التكيف الذي لن يكون ممكنا بدون إيضاح واقع الاختلاف واتجاه الإطراف للتعبير عنه بكل حرية وقوة ، لان اختلافي مع الآخر سيدفعني حتما إلى البحث عما يجمعني به من اجل التكيف معه وليس لمحاربته أو مناقضته ، وهو أمر يعجز عنه بالتأكيد مشروع التجانس المزيف الذي فرضته الأنساق الأيدلوجية القسرية زمنا طويلا ، أما سبيلنا إلى ذلك : فيتمثل في إنتاج نهضة حضارية كاسحة للتخلف ، لأن تأثير التخلف لا ينحصر في عرقلة مشروع التغيير فحسب ، بل وفي تخدير العقل وإيهامه بأن للتطور وجها قبيحا ، الأمر الذي يدفع لخلق مشروع بديل تتمثل أطره في تكريس ثقافة النمط الشمولي نفسها ، بإحاطتها بخرافات و أوهام مضللة كوهم الضلالة و خرافة المؤامرة وما إلى ذلك .

تكوين العقل العراقي

أن ما نسميه بالعقل العراقي لم يظهر بغتة ، بل هو نتاج مراحل عدة بدأت بمرحلة التأسيس التي أرتبطت بالحضارة الرافدية التي كان العقل فيها نشطا وفاعلا ، مرورا بمرحلة التحدي ومواجهة الضد التي ارتبطت بدخول عناصر حضارية غريبة تفاعلت مع العناصر الأصيلة ، أي المنتجة في إطار البيئة الطبيعية و الاجتماعية ، إذ ادى التمازج بين هذين النوعين من العناصر إلى خلق بنية عقلية هجينة ، أي بنية لم يصل التمازج فيها حد الاندماج والتوافق ، بدليل ما خلفته هذه البنية من انتكاسات في مختلف الصعد الدينية والحضارية والسياسية والاجتماعية .. الخ ، إذ تحددت العلاقة

داخل هذه البنية بمعادلة القامع التي تمثلها العناصر الدخيلة والمقموع التي تمثلها العناصر الأصيلة ، التي حددت مسار كل منهما باتجاهين مختلفين ، اتجاه القامع نحو إستمراء القمع والهيمنة ، واتجاه المقموع نحو نشدان الخلاص والتحرر ، ولكي نقرأ الحالة العراقية جيدا ، لابد لنا ان نستوعب هذا التمايز غير المنظور من وجهة النظر الشمولية حتى نفهم طبيعة العقل الحاضن لها ، فالحضارة الشمولية مازالت قائمة ، وهي نتاج لتلك الفعالية المشوهة : فعالية الصراع بين الجزء القامع والجزء المقموع من العقل ، فهي دائما تشهده توالدها المضطرد تحت نير القسر و القمع ، الأمر الذي يجعلها دائبة في إستنساخ ذاتها لتظهر دائما بشكل جديد ، دون أن تكون قد أختلفت في الجوهر عن لحظتها الأولى ، لحظة صدام الجزئين ، وإذا قدر لهذه الحضارة أن تموت فلن يكون ذلك قبل أن يتغير منطق العقل الذي يحكمها ، وهو ما يبدو صعبا ومعقدا بالنظر إلى الاستحكامات التي أوجدها هذا العقل لرد ما يصيبه من هزات أو اختراقات ، إذ مثلت التابوات الدينية أهمها على الإطلاق ، الأمر الذي جعل الدين في العراق يأخذ طابعا خاصا ، إنطلاقا من سمات الواقع العراقي الخاصة ، على الرغم من عدم صلة كثير من المضامين الدينية بالبيئة العراقية ، وهذا الأمر لا يقتصر على الطقوس والشعائر فحسب ، بل يشمل أيضا الرموز والشخصيات التاريخية ، وحتى فعالية عاشوراء نجد فيها نمذجة لفعالية قديمة متأصلة في اللاشعور ، تتكرر في تتابع زمني طويل في نماذج أخرى أحدث زمنا : الأئمة ، المراجع ، الشهداء ... الخ .

أما الأسلحة التي امتلكها هذا العقل لرد أي تغيير يمكن أن يطرح كهدف أو حاجة ، فمنها قدرته العالية على المناورة في مواجهة الأزمات والتحديات ، بما في ذلك تبرير عجزه عن التصدي لها و إنهائها ، الأمر الذي مكنه من إستيعاب سيل النكبات التي تعرض لها عبر تأريخه الطويل و التي شكلت علامة فارقة قل مثيلها في التاريخ العالمي ، فبغداد تعرضت وحدها لأكثر من عشرين غزوا بدءا من تمصيرها سنة ٧٦٢م إلى وقتنا الحاضر ، إذ كانت الفاجعة تتكرر في كل مرة كأنها قدر حتمي لا مهرب منه ، وإذا كانت الغزوات والاحتلالات قد شكلت معلما بارزا من معالم

التاريخ العراقي ، فضلا عن كونها نموذجا متكررا لحالة الفلتان التي يشهدها البلد من حين لآخر ، فأن الطغيان السياسي كان له حضوره أيضا ، وشكل ظاهرة متصاعدة بإضطراد ، حتى أصبح كل طاغية نسخة مطورة لطاغية آخر، حتى بات الواقع السياسي وكأنه رهينة دائما لهذه الظاهرة ، إذ لا نجد لهذه الأحداث من أثر في خلق خبرة سياسية يمكنها أن تخرج العراق من جحيم الصراعات والأزمات المتكررة إلى شاطئ التفاهمات والتوافقات ، فالحل يأتي دائما من الخارج بدل أن يتم في مطابخ الداخل ، سواء أكان ذلك من خلال غزو خارجي أم وساطة دولية ، لذا ليس غريبا أن أيا من الدول التي نشأت في العراق منذ قرون خلت ، لم تشيد بقدرات العراقيين ، ولم تنتج من إرادتهم ، ما جعل العقل دائما مشدودا إلى نموذج الدولة الأول المترسب في اللاشعور ، أي الدولة الرافدية التي يسيرها النظام و يحكمها القانون ، فبات العراقي سلبي دائما تجاه نماذج الدولة المتكررة لديه ، لأنه يجدها نقيضا لما يراه في عقله عن نموذج الدولة الأول ، الأمر الذي قد يفسر حالات اللامبالاة والانفلات واستحلال المال العام وعدم الإخلاص وغياب الشعور الوطني ، بعّدِها من إفرازات هذا الأمر ، فلا يسعنا أن نتعجب من الحقيقة التي تظهر العراقي وهو يساهم في تخريب وتدمير بلده [٨] تحت شعارات دينية و قومية و طائفية ، مثلما حصل مرارا [٩] .

---

[٨] . يعرض لنا لونكريك في كتابه : (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) كثير من المآسي التي شهدتها بغداد من دخول الإيرانيين لها سنة ١٦٢٣ ، ثم العثمانيين سنة ١٦٣٨ ، وعودة العثمانيين مرة أخرى بعد حكم المماليك الذي دام من سنة ١٧٥٠ إلى ١٨٣١ ، ففي هذا التاريخ أشار لونكريك إلى الحالة الصعبة لسكان بغداد والمحن التي عاشوها عند مجيء الجيش العثماني ، وكيف عانى هؤلاء من الحصار الطويل والفيضانات والأوبئة ، فضلا عن المذابح التي شهدتها المدينة والتي اشترك فيها الجميع ضد الجميع . ينظر : ستيفن همسلي لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة : جعفر خياط ، (بغداد) ، ص٣١٥ وما بعد .

[٩] . مثال ذلك حالة الإرهاب الجارية الآن في العراق ، إذ لم يصل الإرهاب في أي مكان إلى ما وصل إليه في العراق ، إذ تنوعت أشكاله وصوره : القتل على الهوية ، استهداف الجيش العراقي ، ضرب المؤسسات الخدمية ، تدمير البيوت والمدارس والمستشفيات ودور العبادة المختلفة والجسور والأسواق وأنابيب النفط ، مع استهداف جميع الفئات العراقية : الشيعة ، السنة ، الأكراد ، المسيحيين ، التركمان ، الصابئة ، الايزيدية والشبك ، وجميع الاختصاصات والكفاءات العلمية والفنية ، لا فرق بين الطفل والشيخ والمرأة ، وبوسائل مريعة : عبوات ناسفة ، تفجيرات انتحارية ، هجمات مباشرة ، اختطاف ، اغتصاب ، ذبح ، من خلال تجنيد الأطفال والمعاقين والمجانين والمصابين بأمراض نفسية . للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن الاستفادة

لكن إضطراب العلاقة بين الفرد والدولة لم يكن الأثر الوحيد للفشل السياسي ، بل وكذلك عدم قدرة الدولة على إذابة الفوارق ما بين الفئات التي يتكون منها المجتمع ، وهذا ما لمسناه جليا في العراق الحديث سواء أكان في العهد الملكي أم الجمهوري ، الأمر الذي جعل المجتمع متشرذما ومتحللا ، يموج بإثنيات منعزلة عدة ، حتى لتبدو – هذه الأثنيات – و كأنها لم تكن يوما حالة واحدة أو تتعايش فيما بينها زمنا طويلا [١٠] ، ما جعل العلاقة بين هذه الأثنيات محكومة دائما بالخوف والحذر والتشنج ، ومن ثم لابد لنظرتنا الاجتماعية أن تحمل ذلك الإستفهام العميق الذي يوصلنا إلى أعماق الظاهرة الاجتماعية ، فليس من العلم في شيء تشخيص الظاهرة الطائفية كظاهرة مترسخة في الواقع العراقي ، من دون أن نصل إلى ما وراء ذلك ، إي إلى المنطق الذي ينتج الصراع والطائفية [١١] ، ولذلك نحن نلحظ عندما نعاين الحالة العراقية ، إن أهم ما يظهر منها هو ذلك التركيب الاثني العجيب الذي يؤلف الجسد العراقي ، والذي لم يصل يوما إلى حدود الهوية الجامعة ، هوية الوطن العراقي أو الدولة العراقية ، إذ لم يصل مشروع الدولة الحديثة الذي أرست بريطانيا معالمه في مطلع القرن العشرين إلى نهايته في العراق ، لا بل و لم يتجاوز القوالب الاثنية والطائفية الصغيرة ، حتى بدى العراق أحيانا كثيرة أشبه بعالم صغير من أمم وشعوب لا يربطها رابط ولا يجمعها جامع ، فيما إن العكس هو الصحيح ، حيث ترتبط هذه الاثنيات مع بعضها بعض بروابط إجتماعية وثقافية متينة ، إذ تناول كثيرون مأساة الوطنية العراقية بعدها نتاجا للبناء الخاطئ للبلد أو بسبب ما فيه من

من المصدر التالي : خالص جلبي واخرون ، الاسلام والعنف (الواقع وتحدي الارهاب وازمة البناء والتعليم) ، (عمان : الطبعة الاولى ، ٢٠٠٥) ، ص ١٤٤ – ١٩١ .

[١٠] . ينظر : رشيد الخيون ،الأديان والمذاهب بالعراق ، (مطبعة سبحان إيران ، ٢٠٠٥) ، صفحات مختلفة .

[١١] . يلاحظ في هذا الخصوص الاختلاف في طرح هذه العوامل بين كل من الباحثين علي الوردي وحنا بطاطو تبعا للمنهج الذي يتبعانه ، ولكن على الرغم هذا الاختلاف تكاد الصورة العامة لا تختلف كثيرا ، إذ أنهما يطرحان غالبا آراء متقاربة ، ولكن أحيانا بتناول مغاير ينظر : حنا بطاطو ، العراق (ثلاث مجلدات) ، ترجمة : عفيف الرزاز ، (منشورات فرصاد ، ٢٠٠٥) ؛ علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق (أربع مجلدات) ، (مطبعة ستار إيران ، ٢٠٠٥) .

تنوع سكاني ، وهذا الأمر غير صحيح ، لأن تضخم الهويات الفرعية في مقابل تقلص الهوية الوطنية ، يعزى غالبا إلى عدم مرور هذه الهويات بمنطق النفي الذي يسمح بإنتاج هوية جديدة ، وفي الواقع فان حراك الأسلمة أو التعريب الغير متبلور هو الذي أنتج هذا النوع من الاغتراب ، فضلا عن وضع العراق داخل حلبة الصراع الدولي والإقليمي كمركز نزاع أو خط حدود لما يضمه من مكنونات قومية وطائفية .

مرحلة التأسيس

تعد المدة الزمنية التي ازدهرت فيها حضارة بلاد الرافدين [١٢]، المرحلة الأساس في تكوين العقل العراقي ، ففي هذه المرحلة التاريخية كان العقل يعمل وينتج أهدافه وأفكاره وأساليبه العملية بشكل طبيعي ، الامر الذي ادى إلى نشوء حضارة كبيرة وأصيلة عدت الأساس لما جاء بعدها من حضارات ، سواء تلك الحضارات التي شهدتها منطقة الشرق الادنى القديم أو الحضارات الأخرى ، وعلى الرغم من ان العراق هو المكان الذي نشأت فيه هذه الحضارة ، إلا أنه ليس من الضروري ان يكون هو أبرز الوارثين لها ، فهناك حضارات ربما ورثت أكثر مما ورثه العراق الحديث من قيم ومضامين مستمدة من حضارة بلاد الرافدين ، كما هو الحال مع الحضارة الغربية الحديثة التي تعد أهم وارث لحضارة بلاد الرافدين [١٣]، على ان هذا لا يعني أننا لا نجد لحضارة بلاد الرافدين من صدى في ثقافة العراق الحديث ، بل ما نعنيه هو فقدان الصلة بنمط تفكير تلك الحضارة وبرؤاها الفكرية ونظرتها للحياة وما إلى ذلك .

أما عوامل تكوين العقل العراقي (مرحلة التأسيس) فأهمها :

١ـ الواقع البيئي

---

[١٢] . للإطلاع على كل ماله علاقة بحضارة بلاد الرافدين ومتابعة أي معلومات عنها وردت في عذا الكتاب ، ينظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ؛ هاري ساكز ، عظمة بابل ، ترجمة : عامر سليمان ، (الموصل ، ١٩٧٩) ؛ جورج رو ، العراق القديم ، ترجمة : حسين علوان حسين ، (بغداد ، ١٩٨٤) .

[١٣] . جان بوتيرو ، بلاد الرافدين : الكتابة – العقل – الآلهة ، ترجمة : الأب البير أبونا ، (بغداد ، ١٩٩٠) ، ص ٤٤ .

نشأت حضارة وادي الرافدين على أطراف الاهوار الجنوبية ، إذ تؤكد البيئة هناك عن بعديها العدائي والأليف ، الأمر الذي جعل سكان بلاد الرافدين دائمي التفكير في كيفية مواجهة هذه البيئة واستغلالها لمصلحتهم ، فبينما لا ضرورة تدفع سكان البيئة الوادعة على تنكب التفكير العميق والبحث عن سبل أفضل للعيش ، و الشيء نفسه فيما يخص سكان البيئة القاحلة أو الوعرة التي لا تغري سكانها بالمنافع الجزيلة فتدفعهم إلى تركها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، يختلف الأمر فيما يخص بيئة بلاد الرافدين التي تجمع ما بين الغنى والتحدي ، إذ نجد أن للعقل سبيل واحد ، وهو العمل على مواجهة ما فيها من تحديات و إستغلال ما فيها من إمكانات تخدم استقراره وتطوره ، ولذلك هناك سبب كبير وأساسي لنشوء حضارة بلاد الرافدين ، وهو حاجة الإنسان للتكيف مع الصعوبات ومحاولة تذليلها قدر المستطاع حتى لا يفقد الموارد الكبيرة التي تضمها هذه البيئة الغنية ، وبالتالي نشا مبدأ (الأسر البيئي) ، الذي جعل العراقي منجذبا لبيئته وفي نفس الوقت مواجها ومتحديا لها ، فكان أن أصبحت هذه المرحلة المبكرة من تاريخ حضارة بلاد الرافدين ، فترة التأسيس في تكوين العقل العراقي ، التي امتدت إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، أي إلى نهاية الوجود السياسي للسومريين ، وتشمل التحديات التي واجهها الإنسان في هذه البيئة : الأمطار الموحلة التي تجعل الأرض الطينية غير صالحة للسكن والسير ، والعواصف اللاهبة والمتربة في الصيف والقارصة في الشتاء التي تزيد من صعوبة العيش ، فضلا عن الفيضانات المتكررة المدمرة لكل شيء ، ولعل من الأحداث المهمة في تكوين العقل العراقي حادثة الطوفان المشهورة في النصوص المسمارية ، والتي يعتقد انها حدثت قبيل مرحلة نضج الحضارة السومرية منتصف الالف الرابع قبل الميلاد .

إذ كان للطوفان على الأرجح تأثيرات بعيدة المدى في نفوس السكان آنذاك ، وذلك لما تسبب به من خراب كبير وانهيار لكل مقومات الحضارة ، الأمر الذي أدى إلى نشوء عقدة عقلية يصح أن نسميها (عقد الطوفان) ، ترسبت في اللاشعور الجمعي للمجتمع ، وكونت ما يشبه الخلفية لكثير من السلوكيات التي عرف بها الفرد العراقي فيما بعد

، بما في ذلك امتلاكه لنظرة عدمية ، وانعدام الحس الاعماري ، وسيادة الانفلات والعشوائية في تصرفاته .

٢ـ العامل البشري

أما العامل الثاني في تكوين العقل التحتي ، فيتمثل بالعامل البشري ، إذ يحيل كثير من الباحثين نشوء الحضارة في بلاد الرافدين إلى فعالية شعب معين هو الشعب السومري ، وفيما يخص هذا الشعب ، فإننا على الرغم من كثرة ما نملكه من معلومات عن حياة السومريين وأنشطتهم السياسية و الحضارية ، إلا إننا للأسف نفتقر لمعرفة الموطن الذي عاشوا فيه أطوار تاريخهم الأولى ، إذ اختلفت الدراسات في هوية ذلك الموطن وذهبت في ذلك مذاهب شتى [١٤] : فمنهم من نسبهم إلى شمال الهند وربطهم بأصحاب الحضارة الهارابية والموهنجيدارية في حوض نهر الاندوس ، وهناك من ربطهم بالأقوام الطورانية أستناداً إلى المظهر والهيأة التي بدت عليها بعض التماثيل والمنحوتات التي تعود لشخصيات من العصر السومري ، وهناك من نسبهم إلى الأقوام الهندو أوربية أو إلى حضارات الدانوب استناداً إلى بعض المفردات اللغوية أو إلى بعض الخطوط التي اكتشفت هناك ، فيما رأى آخرون وجلّهم من الباحثين العراقيين أن السومريين هم من سكان العراق الأصليين ، سواءً من شمال العراق أو من جنوبه (سكان الأهوار الأصليين) ، ويقدم هؤلاء حججا كثيرة لتأكيد فرضياتهم ، فمؤيدو الأصل الشمالي ، يستدلون على فرضيتهم بتوالي المستوطنات البشرية التي تنحدر مع مرور الزمن متبعة النهرين من الشمال إلى الجنوب ، أمّا مؤيدو نظرية الأصل الجنوبي ، فيستدلون على ذلك بوعورة الأرض الجنوبية وعدم امتلاكها لصفة الإقليم الجاذب الذي يدفع المهاجرين للقدوم إليه في تلك العصور القديمة ، ولعلّ أحدث نظرية هي تلك التي نفت وجود السومريين ، عادة اللغة السومرية التي استعملت دليلا رئيسا على وجودهم ، على إنّها مجرد لغة

---

[١٤] . لاستعراض أهم النظريات التي تتناول اصل السومريين ينظر : فارس عجيل ، ما يسمى بالمشكلة السومرية ، مجلة الاداب السومرية ، العدد (٢) ، (جامعة ذي قار ، كانون أول ٢٠٠٧) ، ص٤٧ ـ ٥٠ .

دينية استخدمها الأكديون لإغراض شعائرية ولا ترتبط بالضرورة بعرق أو قوم معينين .

لقد أدى تعدد الآراء بشأن أصل السومريين ، إلى خلق ما أصطلح عليه لدى المؤرخين والآثاريين بالمشكلة السومرية ، بعد ان تعذر الوصول إلى رأي حاسم بشأن هوية السومريين وجذورهم .

أمَا الموطن الذي أوى السومريون طوال وجودهم التاريخي ، فهو منطقة الأهوار في جنوب العراق التي نشأت فيها وحولها أقدم الحضارات البشرية و التي نضجت في ما يسمى بدوري الوركاء وجمدة نصر في المدة المحصورة بين منتصف و أواخر الألف الرابع قبل الميلاد بنشوء وتطور الحياة المدنية ، وازدهار الفنون والآداب العلوم والمعارف ، وتطور الحِرف والصناعات اليدوية ، و ظهور مؤسسة الدولة ، وتنظيم الري الذي رفع من حجم ومستوى الإنتاج الزراعي ، وابتكار الأختام الاسطوانية التي ارتبطت بازدهار الحياة الاقتصادية ، وأخيرا اخترعت الكتابة المسمارية (Cuneform) التي أصبحت مَعلماً مهما من معالم المدنية السومرية ، ومن اجل ان نفهم واقع العقل العراقي في مرحلة التأسيس ، لابد ان ندرس أهم مظاهر فاعليته و في الأخص ما يلي :

أولا : المظهر الديني

تعد الديانة العراقية القديمة [١٥] من أهم نتاجات العقل العراقي في مرحلة التأسيس ، وهي على الرغم من أندثارها إلا أنها لم تختفي تماما ، بدليل أنسياح كثير من عناصرها ضمن ما نسميه بالديانة الشعبية ، وهي الديانة التي غالبا ما تمتزج فيها المتون العائدة للديانة السائدة مع الطقوس والمعتقدات المستقاة من الديانات السابقة ، ومن ثم فإن فهمنا للعقل الديني العراقي لا بد ان يرتكز على فهم مكونات هذا العقل وطبيعة تعاطيه مع الواقع العراقي في كل مرحلة من المراحل التاريخية ، فالعقل العراقي في مرحلة التأسيس لم يتعاط مع الديانة بنفس تعاطي العقل في مرحلة التحدي ومواجهة الضد أو المراحل التالية ، لذا لا غرابة في أن نجد الديانة العراقية

[١٥]. حول الديانة في بلاد الرافدين ينظر : جان بوتيرو ، الديانة عند البابليين ، ترجمة : وليد الجادر ، (بغداد ، ٢٠٠٥) .

القديمة تختلف في المتون والطقوس مع كثير من متبنيات الأديان العراقية المعاصرة ، إذ تمتاز هذه الديانة بجملة عناصر أهمها :

١- أن الديانة العراقية القديمة تعد من أقدم الديانات البشرية المعروفة ، إذ تعود جذورها إلى ما قبل اختراع الكتابة بكثير ، ومن الأدلة التي يعتمد عليها في مد عمر الديانة العراقية القديمة إلى عصور قبل التاريخ ، تتابع بناء المعابد بعضها فوق بعض ، مما يؤكد أنّ تلك المعابد تعود للآلهة نفسها التي عبدت في العصور التاريخية ، فضلا عن مشاهد المنحوتات والأختام الأسطوانية العائدة لحقبتي الوركاء وجمدة نصر ، التي تصور بوضوح بعض الآلهة المعبودة في العصور التالية .[١٦]

٢- الديانة في العراق القديم ديانة عراقية من حيث النشأة والتطور ، ومما يؤكد ذلك . إرتكاز هذه الديانة على قوى لها صلة بالبيئة المحلية : كالسماء الصافية التي رمز لها بالإله أنو (Anu) ، والهواء المضطرب الذي رمز له بالإله أنليل (Enlil) الذي يتقلب بين الشدة التي تتمثل بالزوابع الرعدية والعواصف الترابية ، والوداعة التي تتمثل بالنسيم العليل ، والماء العذب (دجلة والفرات) الذي يمثله الإله أنكي (Engi) | أيا (Ea) بالأكدية ، إ ارتبطت هذه المعبودات بمدن قبل الطوفان ، وبالأدوار الحضارية المبكرة : طور أريدو من عصر العبيد ، وعصر الوركاء النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد ، وعصر جمده نصر الذي يرجح ان تكون مدينة نفر إحدى مقراته المهمة .

٣- لم تبق الديانة العراقية القديمة على وتيرة واحدة ، بل نمت وتطورت تبعا للتطورات السياسية لهذه الحضارة ، ففي المرحلة الأولى التي واكبت نشوء حضارة بلاد الرافدين ، قسمت الآلهة على آلهة معبودة من قبل جميع بلاد سومر وأبرزها : الثالوث الإلهي انو ، انليل ، أنكي (أيا) ، والهة تقتصر

---

[١٦] . جورج رو ، العراق القديم ، ترجمة : حسين علوان حسين ، (بغداد ، ١٩٨٤) ، ص ١٢٩ .

عبادتها على مدينة واحدة أو تختص بمهنة ما أو ظاهرة معينة [١٧] ، بحيث يدير كل إله جانب من الكون ، ويكون مسؤولا أمام الثالوث الإلهي ومجموعة الآلهة العظام عن الجانب الذي يمثله والبشر الذين تحت يده ، لكن الأمر تغير في المراحل التالية التي شهدت ظهور مبدأ التفريد الذي أصبح بموجبه لأحد الآلهة صلاحيات تفوق ما لدى الآلهة الأخرى مع انه قد لا يعلوها بالمنزلة ، كما حصل مع الإلهين مردوخ البابلي وآشور الآشوري .

٤- نظر العراقيون القدماء إلى الآلهة على أنها قوى خارقة للطبيعة ، لكن قواها ليست مطلقة ، لأنها محددة بقوى الآلهة الأخرى ، كما أنهم لا يخضعون لسنة الموت المقدرة على الإنسان ، إلا أنهم مع ذلك معرضون للموت بحكم صراعهم مع القوى الأخرى ، وفيما عدى قدراتهم الكبيرة التي تميزهم عن البشر ، فأنهم يمتازون بنفس الطباع التي يمتاز بها البشر ، فهم يجوعون ويعطشون ، يتزوجون ويؤسسون عوائل ، يعملون ويستريحون ، يتصرفون بحكمة أو بتهور ، ولا يتورعون عن التسبب بالإبادات والكوارث لأتفه الأسباب ، وقد يندمون على ما يفعلون [١٨]، وفي كوّن تحكمه آلهة بهذه المواصفات ، لا يمكن للإنسان أنْ يضمن أي شيء فيه ، فحتى لو ضمن إلها ما ، فهو لا يستطيع أنْ يضمن بقية الآلهة التي يهيمن كل منها على ظاهرة من ظواهر الكون أو قوى الفوضى التي تحوم حوله وتتربص به ، فكل لحظة من عمر الحياة تحمل متغيرات كثيرة لا يلجمها إلا عامل التوفيق الذي يؤمن به السومري ويعتبره الأمر الوحيد الذي يضمن بقائه وديمومة حياته .

٥- لا يؤمن العراقيون القدماء بمبدأ الثواب والعقاب الأخروي ، ومن ثم فإن هدفهم من العبادة قد لا يتعدى ضمان جريان الأمور بشكل طبيعي ، واتقاء غضب الآلهة ، الأمر الذي يمكن الإنسان بعد التحرر من خوفه الدفين من

---

[١٧] . جورج رو ، العراق القديم ، ص١٣١ – ١٣٥ .

[١٨] . جان بوتيرو ، بلاد الرافدين ... ، ص ٢٥٧ – ٢٥٨ ؛ جورج رو ، العراق القديم ، ص ١٣٠ .

بذل مجهود يحسن فيه واقعه ويرتقي بحياته إلى الأفضل ، ما أدى إلى طغيان الصفة المادية ، ونشدان النعيم والمتعة في الحياة والخلود المعنوي بعد الممات.

٦- الديانة العراقية القديمة ديانة مرنة ، يمكنها ان تقبل الكثير من العناصر الدينية الوافدة ، فهي بالأساس ديانة مجمعة من ديانات المدن السومرية الأولى ، وتضم في إطارها الآلاف من الآلهة المعبودة من قبل المدن و السلالات و الأقوام التي عاشت في بلاد الرافدين ، بما في ذلك الأقوام الغازية ، إذ يضم مجمع الآلهة العراقي القديم ، فضلا عن الآلهة السومرية العتيقة ، آلهة آمورية وكشية وحورية وآرامية وغيرها ، و الملاحظ انه على الرغم من الإضافات التي حازها مجمع الآلهة على مدى المراحل التأريخية ، فإن ذلك لم يصب جوهر الديانة أو يغير في مكانة الآلهة الكبار ، التي تمثل رأس الهرم الإلهي كـ الآلهة (آنو) و (أنليل) و (أيا) .

٧- نتيجة لذلك ، لم تشهد هذه الديانة أي شكل من أشكال التزمت أو الإقصاء أو التكفير ، فقد كان معتنقوها أحرار في ممارسة أو عدم ممارسة طقوسهم وشعائرهم ، وفي الخروج من الديانة واعتناق ديانة أخرى ، كما لم تفرض أي إلتزامات دينية أو مادية ، فما يقوم به الأفراد من طقوس وشعائر عبادية أو تقديم النذور والقرابين ، يتم في إطار تام من الحرية الشخصية ، وبدون أي قسر أو إكراه ، ومع ذلك كان الأقبال على ممارسة الطقوس والشعائر وتقديم النذور والقرابين واسعا وكبيرا ، والسبب لأن هناك إلتزامات مقابلة تقوم بها المعابد أتجاه الأفراد ، وهذه الإلتزامات لن تكون متاحة فيما إذا تخلى الشخص عن إلتزاماته أتجاه المعابد .

ثانيا : المظهر السياسي

نشوء الدولة يعد من الإنجازات المهمة لأي حضارة من الحضارات ، وفيما يخص حضارة بلاد الرافدين ، فإن الدولة قد ظهرت فيها منذ وقت مبكر ، وقد تكون الدولة

في العراق اقدم من مثيلاتها في الحضارات الأخرى ، إذ تعود بداياتها إلى عصور قبل التأريخ أو قبل الطوفان ، كما يرد في الأدبيات العراقية القديمة ، ومن دراسة نشوء وتطور الدولة في العراق القديم ، يمكننا ان نقدم الملاحظات التالية :

١- ان الدولة في العراق القديم هي نتاج تطور طبيعي شهده المجتمع العراقي وليست نتاجا مستوردا من الحضارات الأخرى ، وذلك لقدم حضارات بلاد الرافدين وأسبقيتها للحضارات الأخرى في الكثير من الأختراعات والإبتكارات ومنها مؤسسة الدولة ، كما أنه بإمكاننا تتبع نشأتها إلى عصور قبل التاريخ ، وإلى مراحل حضارية مبكرة ، وان هذه الدولة لم تبق على شكل واحد أو تتبع نظما محددة ، إنما شهدت تطورات كبيرة في نظمها وتقاليدها تبعا للتطور الذي يشهده المجتمع أو الحضارة العراقية القديمة .

٢- النظام السياسي الأول الذي عرفته البلاد هو نظام (دويلات – المدن) ، إذ نشأت في بلاد سومر العديد من الدويلات التي يحكم كل منها مدينة من المدن ، تتبعها قصبات تشكل إطارها الإداري ، ولكن هذه الدول لم تكن على الدوام تامة الإستقلال ، إذ كان عليها أن تخضع لسيطرة أحدها من اجل إدارة الري و مواجهة التحديات الخارجية ، ما يدل على وجود وعي سياسي وفهم ناضج لمجريات الأمور في البلاد ، ومن أهم المدن التي قادت اتحادات المدن السومرية : كل من كيش واوروك وأور وأداب ولكش وأوما .

٣- نظام الحكم في المدن السومرية في العصور قبل التاريخية ، اعتمد على شكل من أشكال الديمقراطية أسماه ثوركيلد جاكوبسن بـ(الديمقراطية البدائية) ، وفي هذا النوع من الحكم ، يوجد مجلسين أحداهما يضم كبار السن والآخر يضم الشباب ، وهؤلاء هما اللذان يقرران شكل التصرف في الحالات الاستثنائية كالحروب والفيضانات ، ومن الأدلة التي اعتمدها جاكوبسن في الاستدلال على وجود هذين المجلسين ، الأساطير التي تناولت النظام الكوني وأسلوب إدارته من قبل الآلهة ، إذ تجتمع الآلهة برئاسة كبيرها للتداول فيما

يخص شؤون الكون ، ووفق جاكوبسن فإن هذا التصور عن السلطة الكونية لم ينبع من الخيال ، بل من حقائق كانت موجودة على الأرض في عصور قبل التأريخ [١٩] ، ومما يؤكد ذلك تلك الحكايات الملحمية التي روت اجتماع مجلسي مدينة الوركاء لمناقشة الطلب المقدم من (اكا) حاكم كيش لأهالي الوركاء ، والذي تضمن تحديد خيارين لهم ، إما الاستسلام أو الحرب ، فكان أن انقسم المجلسين بين قبول الإستسلام أو المضي إلى الحرب الذي مثل خيار جلجامش أيضا ، ومن الأدلة الأخرى ، ما ورد في ملحمة جلجامش عن عزم جلجامش السفر لغابة الأرز ، إذ كان عليه إستشارة مجلس المدينة لكي يحظ بمباركته ودعمه . [٢٠]

٤- شهدت المرحلة التالية للعصر السومري ظهور نموذج الأستبداد السياسي الذي واكب نشوء أولى انظمة الحكم الموحدة : الأمبراطورية الأكدية وسلالة اور الثالثة ، وصولا إلى المملكتين الآشورية والبابلية ، إلا أنه على الرغم من ذلك ، بقيت بعض التقاليد الديمقراطية قائمة مثل : وجود المجالس الأستشارية وخضوع الملك لطقس إعادة التنصيب السنوي ، الذي بموجبه يجري خلع شاراته الملكية وتأنيبه على أي تقصير في عمله من قبل الكاهن الأعظم ، وقد يصل الأمر حد ضربه وعرك اذنه ، قبل ان يتم إعادة الشارات إليه وتنصيبه من جديد ملكا على البلاد ، وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على قوة التقاليد الموروثة من العهد السومري ، الذي يمثل عهد نضج الحضارة العراقية القديمة .

ثالثا : المظهر الفكري

---

[١٩] . فرانكفورت وآخرون ، ما قبل الفلسفة ، ص ١٧٤ – ١٧٦ .

[٢٠] . طه باقر ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ٩٨ – ١٠٠ .

لا يمكننا أن ننكر أن ذهنية المجتمع العراقي القديم في الفترة المبكرة من الحضارة (قبل المرحلة التاريخية) ، كانت ذا طابع بدائي ، ومن المحتمل أن تكون نظرتها للأشياء قد حملت أهم سمات ذلك الطابع ، وهي معاملة الأشياء غير الحية بنفس معاملة الكائنات الحية ، وربما اعتقد أيضا أن هناك علاقة تربط هذه الأشياء المختلفة بتراتبية روحية متصاعدة ، بحيث يتربع الإله على رأس هذه التراتبية ، وصولا إلى راس السلم الإلهي ، ولذلك نجد أن لكل صنف من صنوف الحياة اله خاص يعمل لخدمة صنفه ، فهناك اله للزراعة وآخر للعواصف وللرعي وللفيضان وللحرب وللموت .. الخ ، وبالطبع لا يتحرك هؤلاء بمحض إرادتهم ، بل بحسب ما تمليه إرادة مجموع الآلهة مع اعتبار خاص للآلهة الكبرى (الانوناكي) ، ونحن هنا نتفق مع الرأي الذي يحيل هذه الفكرة عن الحكومة الإلهية الى شكل الدولة في العصور قبل التاريخية ، انطلاقا من مسايرة الأفكار للواقع ، فضلا عن إعتماد هذه الحكومة بحسب المخيال الرافديني على التوافق والحوار في تقرير المصائر ، الأمر الذي لم تعهده الدولة البشرية في المراحل التاريخية اللاحقة ، لكن هذا النوع من الحكم لم يستمر طويلا ، إذ من المرجح أن تغييرا مهما ربما شاب نظره العراقي القديم هذه ، بحيث غدت وظيفة الحكومة الإلهية ليست قاصرة على حفظ موازين الكون الداخلية ، بل ومنع اختراقه من الخارج أيضا ، أي أن خطر الفوضى الذي يهدد الكون ، لا يأتي من احتمال اختلال التوازن الداخلي فحسب ، بل ومن حصول عارض خارجي أيضا .، هذا العارض نابع من وجود قوى أخرى تحمل نسقا فوضويا ، تخوض عراكا دائميا مع قوى الكون أو النظام ، ومن ثم لا تمثل قصة الخليقة السومرية أو البابلية تعبيرا عن نتيجة أرستها معركة حصلت في الماضي ، كما يمكن أن يفهم من سير الأحداث ، إنما هي أيضا تأكيدا لحالة الصراع التي يشهدها الكون في كل لحظة من لحظاته بين قوى النظام والفوضى ، مع أنها تعطي صورة عن نتيجة هذا الصراع التي هي صورة لحظية يعقبها صراع جديد ، وهكذا دواليك إلى نهاية الكون ، وبالطبع ليس هناك ما يمنع من أن يظهر النص وكأنه يحكي موضوع معركة كبيرة

تشمل أحداثها كل حقبة الوجود وتنتهي بانتصار قوى النظام إذ يرد في النص ما نصه : " بعد أن حضر كل من تيامه و انليل (مردوخ في الأسطورة البابلية) ، تقدما نحو المعركة واقتربا من المعمعة ، وكان انليل يمد شباكه وغطى تيامه بها ، ثم مرر أمامها الإعصار الذي كان خلفه ، وبينما فتحت شفتيها على مداها ، ادخل فيها الإعصار بشكل لم تعد تقوى على إغلاق شفتيها ، وملأت الرياح الغاضبة بطنها ، فأضطرب قلبها وفتحت فمها على أشده ، فركى رمحه وشق بطنها [٢١] " ، هذه النتيجة تمثل ختام الجهود المبذولة لقهر الفوضى ، ولا تشير بالضرورة لنصر فردي ، بل ما تشير إليه هو أن رأس قوى النظام استطاع أن يهزم رأس قوى الفوضى ، ولابد للإنسان من أن يكون له دور في هذا الصراع ، مع أن دوره قد لا يكون في جانب الخير أو النظام دائما ، إذ ربما يتعرض للإغواء أو يسقط صريع الغفلة والحسابات الخاطئة ، ما يجعله في صنف قوى الفوضى أيضا ، ورغم أن لقصة الخليقة تأويلات أخرى قد تنطلق من واقع المجتمع الخالق لها ، إلا أنها تحمل في جوهرها المعنى ذاته ، أي وجود قوى تدعم النظام وأخرى تدعم الفوضى وأن على الإنسان أن يقف مع قوى النظام لأن مصلحته تتطلب ذلك ، ونظرا لنجاح الإنسان في إستغلال البيئة السهلية وبيئة الهور لمصلحته ، فقد أدى إلى حصول تغيير في نظرته للحياة ، فلم يعد يحمل ذهنية متشائمة ، بل أصبح لديه بصيص أمل في أن حياته ستكون أفضل ، الأمر الذي جعل الإنسان يتحرك لتغيير واقعه والإمساك بزمام أمره ، بعد أن كان خائفا ويائسا ، ومن ثم ربما أخذت نظرته البدائية للأشياء تختفي تدريجيا ، ولم يعد يراها كحيوات لها إرادة أو روح ، بل أصبح يفرق بين ما هو حي وما هو غير حي ، وان لم يكن التفريق واضحا كفاية بحكم تناقض الذهنية العراقية وإمساكها باعتقادين في أن واحد ، انطلاقا من دافع الحذر الذي غدى المعلم الأساس للذهنية العراقية : (احتط لمستقبلك يكون إلهك إلهك وإذا لم تحتط للمستقبل لن يكون إلهك إلهك) ، أي أن وجود نصوص دينية تشير إلى الاعتقاد القديم (أي أن الجمادات

---

[٢١] . استل هذا النص من المرجع التالي : جورج شمار ، المسؤولية الجزائية في الآداب الآشورية والبابلية ، ترجمة : سليم الصويص ، (بغداد ، ١٩٨١) ، ص ٣٧_٣٨ .

والظواهر الطبيعية كائنات حية)[22] ، ما هو إلا تعبير عن القلق والخوف من المجهول ، وليس له علاقة بإيمان أو يقين ، بدليل تعاطي الإنسان المرن مع كل الأشياء غير الحية وتعامله المادي معها ، وفي الواقع فإن الحضارة هي ابلغ دليل على تلاشي ذلك الاعتقاد أو انحساره بدرجة ما ، وربما فهم المضار التي تسببها الأشياء من حوله على أنها جزء من التوظيف العام أو اختلاط الإرادات ، سواء أكانت تلك الإرادات التي تحررها صيرورة الكون أو الإرادات النابعة من حلقه الفوضى الكامنة وراء الكون ، الأمر الذي ادى إلى ظهور مفهوم (المسؤولية) التي يجب ان يتحملها كل طرف من اطراف هذا الكون بما في ذلك الانسان نفسه ، الأمر الذي جعل الدين الرافدي مهتم بشكل خاص بتحديد اطار المسؤولية ، لكي يعرف الانسان ما له وما عليه : " اعطني طريقا استطيع ان امر بها بسلام . لاني صالح وامين ولم اكذب عن قصد ولم اقترف النفاق والرياء " [23] ، ومن ثم فإن الدين الرافديني يحمل هدفا مختلفا عن غيره من الاديان الاخرى ، لانه لا يؤمل الانسان بالمعاد و بالثواب والعقاب الاخروي ، انما هو فقط يقدم للانسان طبيعة مسؤوليته وما سيحصده من تحملها في عالم الدنيا ، وفي هذا يقول احد الباحثين : " ان البابليين كانوا على العكس من المصريين فانهمكوا على دراسة الحياة الحاضرة حيث كانوا حريصين على حماية الحياة من الف السلاطين الشريرة التي تهددها دون انقطاع " [24] ، ومع ذلك لم يكن الانسان ليأمل من وراء ذلك مكافأة او ربح ، بل فقط عيش حياته دون كوارث او صدمات ، فكان دعاءه لإلهه : " امنحني حياة طويلة ، دع ولدي يشبع من متع الحياة) (خلصني من البئس ، نجني من الفقر " ، هذا كل ما يطلبه العراقي القديم ، لانه يدرك بحكم ما عاينه من رسوخ الفناء ، ان لا مهرب من الموت ، وليس هناك أي ضمانة لمستقبل جميل يأتيه بعد الموت ، لان الموت ذاته يمنع ذلك ، تقول إحدى القصائد : " سيريك قانون العالم السفلي ان ما هو عزيز عليك وما احتضنته وسررت به قليل

---

[22] .ينظر : فرانكفورت ، ما قبل الفلسفة ، ص١٥١_١٥٧ .
[23] . جورج شمار ، المسؤولية الجزائية ، ص١٨٥
[24] .المصدر نفسه ، ص٨٥

تنخر به الديدان ومن تركت جثته في البرية تعيش روحه في قلق دائم ومن لا يجد من يقدم له القرابين ياكل فضلات الطعام ونفايات الصحون التي نلقيها في الشارع " [٢٥] ، هذا الامر ربما هو الذي جعل العراقي في حالة ثوران او تمرد ، وجعل تعاطيه مع المسؤولية محكوم بمزاجه ، لاسيما وهو يدرك ان مسؤوليته لا تحميه من الكوارث او الصدمات ، تقول احدى القصائد : " حقا كنت اعتقد ان تقواي مرضية لدى الالهة ، ولكن ما تظنه احسانا قد يكون اهانة لهم ، وما تتصوره تجديفا يكون احسانا عندهم فممن يستطيع ان يعرف ارادة الهة السماء ، او تطميم الهة المناطق الجحيمية ، اجل كيف يسع المتوفين ان يدركوا خطة الاهة فمنهم من كان البارحة مزدهرا واليوم يحتضر" [٢٦] ، ومن ثم حمل الدين الرافديني عبئا كبيرا ، بسعيه لوضع الناس امام مسؤولياتهم ، وتخويفهم من النكران الذي ربما يؤدي إلى نقمة الالهة ذاتها ، فتباشر برفع حمايتها عنه ، هذه الحماية التي يجدها ضرورية لانقاذه من سطوة الفوضى التي تحيق به ، ولذلك لابد ان يتحمل الانسان ما عليه من واجبات ، وان يمارس دوره الاجتماعي على اكمل وجه ، تجاه : العائلة ، المملكة ، الوالدين ، الاولاد ، المعبد ... الخ ، فضلا عن تقديم نوع من الرشى او القرابين إلى الالهة ، من اجل استدرار عطفها وحمايتها ، يقول احد النصوص : " ألح بالتضرع والصلاة واضع بخورا زكيا واحضر تقدمة هدية وعطاءات كثيرة واذبح ثورا سمينا وانحر خروفا سمينا " [٢٧] ، وكل هذا من اجل طلبات يسيرة : الحصول على العطف ، اطالة العمر ، إتقاء المرض ، الحصول على اولاد كثر ، وفي هذا يتحدث الملك الاشوري تجلا فبليزر عن تاثير القرابين على جده اشور دان الاول : " منجزات يديه وقرابين عطاياه الكثيرة قد استمرت دون انقطاع فطال عمره حتى ادرك البياض شعره " [٢٨] ، وربما لذلك اصبح خوف العراقي من الالهة كبيرا جدا ، لانه وهو محاصر باعداء

---

[٢٥] .المصدر نفسه ، ص٢٣٢

[٢٦] .جان بوتيرو ، المصدر السابق ، ص٣٢٦

[٢٧] . روزنكارتين ، ترجمه : خليل سعيد عبد القادر ، نظام القرابين في المجتمع السومري حسب نصوص ما قبل سرجون في لكش ، (بغداد ، ١٩٩٩) ، ص ٥_٦ .

[٢٨] . المصدر نفسه ، ص٦ .

كثر ، ومع عدم وجود ضمانات تضمن بقاءه وسعادته ، فأنه لا مناص له من اتباع الالهة والخضوع لمشيئتها ، مع انه يدرك انه لا يستطيع ان يثق بها او يطمئن لها او يعتمد عليها ، بل كل ما يأمله هو ان يشعر بالطمأنينة مع نفسه ، يقول احد النصوص : " ليس في الانسانية كلها من يستطيع ان يصل إلى المعرفة . من منا لم يخطئ ؟ من منا لم يسقط في السوء . طريق الرب من يستطيع ان يعرفه.[٢٩] "

خامسا : المظهر المدني

لم يكن تحدي البيئة السهلية ، التحدي الوحيد الذي واجه الحضارة في بداية ظهورها ، إنما كانت هناك تحديات أخرى شكلت جزءا من تجربة الحضارة في العراق ، أهمها تحدي البداوة التي ما فتئت تشكل موردا دائما للموجات البشرية الوافدة إلى العراق ، بحكم قساوة البيئة البدوية وأغراء البيئة السهلية ، ومن ثم يحاول قطنه الصحاري والهضاب المجاورة بإستمرار ، التسلل إلى بيئة السهل ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، وربما حصل ذلك منذ أقدم العصور ، سواء أكان ذلك على شكل تسللات سلمية أو غزوات حربية ، وذلك بحسب الظروف التي يمر بها السهل ، ورغم أن السومريون قد هيمنوا سياسيا وحضاريا على منطقة السهل في مدة الالف الثالث قبل الميلاد ، إلا أنهم لم يهيمنوا سكانيا ، بدليل أن ملوك جزريين (نسبة إلى الجزيرة العربية) ، ربما حكموا بعض مدن العراق في العصور السياسية المبكرة ، كما تعرض ذلك قائمة الملوك السومرية [٣٠] ، مع أن هناك احتمال في أن جامع هذه القائمة ، ربما لم يكن يعرف أسماء الملوك بالسومرية ، فأستعاض عنهم بأسمائهم الجزرية ، أي التي يطلقها عليهم الجزريين ، وهذا الاحتمال إذا ما صح لا ينفي

---

[٢٩] . جورج شمار ، المسؤولية الجزائية ، ص ١٨٢

[٣٠] . يلاحظ في هذا الخصوص أن معظم غالبية ملوك سلالة كيش الأولى والملوك الأوائل لسلالات قبل الطوفان يحملون أسماء سامية ، وإذا علمنا أن الكثير من ملوك السلالات التالية هم كذلك ، لأدركنا حجم الوجود الجزري أو تأثيره في البلاد منذ تلك الفترة المبكرة ، على الرغم من أن الثقافة السائدة هي السومرية ، ينظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص ٣٠٤ .

حقيقة امتلاء السهل بالقبائل أو العناصر البدوية التي ربما كانت أنذاك تتجول على حدود الدويلات السومرية ، منتظرة الفرصة التي تتمكن فيها من التسلل إليها أو إخضاعها .

وربما نمتلك نصا يقدم لنا توضيحا لذهنية العراقيين آنذاك ، لأنه يجري بصيغة مفاضلة بين حياة الراعي وحياة الفلاح ، أثناء تقدمهما لخطبة (انانا) ، إذ بدأت المفاضلة بخطاب وجهه (أوتو) إلى أخته (إينانا) ، تضمن إبداء رأيه في طلب الخاطبين ، داعما فيه طلب الراعي : " لم الإعراض عنه يا انانا العذراء ، طيب زبده وطيب لبنه وكل ما ينتج الراعي لذيذ " ، فكان ردها رفض ما قدمه من مبررات لتفضيل حياة الراعي : " لأنه لن يكسوني ثوبه الخشن ، ولن يفرحني بما لديه من صوف بل سأقبل الفلاح الذي يزرع الخضار ويزرع القمح والشعير" [٣١] ، ثم تحولت المفاضلة إلى الجانب الإقتصادي ، إذ أخذ الراعي يفاضل بين منتجاته ومنتجات الفلاح : الحليب لقاء الخمر والجبن لقاء الخضار واللبن الرائب لقاء الخبز ، ثم ما لبث أن أستعرض الراعي عضلاته و ساق قطعانه إلى ضفة النهر إلى حيث حقول الفلاح المزروعة [٣٢] ، وهو ما يحصل غالبا عند مجيء البدو إلى بلاد الرافدين .
إن تحليلنا لهذا النص ، يضعنا أمام عدة استنتاجات : (أولا) أن ذهنية الناس آنذاك تعارض البداوة ، وترفض قيمها ونمط حياتها ، الأمر الذي يمكن فهمه من خلال رفض الفتاة للراعي وتفضيلها الفلاح عليه ، (ثانيا) أن النص وان لم يفصح بشكل واف عن السبب الموضوعي لرفض الفتاة للراعي ، واكتفاءه بطرح المسألة كقضية شخصية ، إلا انه يشير ضمنا ومن خلال مبدأ الجدل إلى أن للرفض علاقة بحياة الراعي مقارنة بحياة الفلاح ، ومن ثم فإن هذا ربما ما أراد النص أن يطرحه وليس أي شيء أخر، (ثالثا) أراد النص أن يشير إلى أن عقلية البداوة لا تقبل الحوار ، بل هي مبنية على منطق التغالب ، إذ عرض النص ذلك بمحاولة الراعي الافتخار

[٣١] . فرانكفورت واخرون ، ما قبل الفلسفة ، ص ١٩٦ .
[٣٢] . المصدر نفسه ، ص ١٩٧ .

بمنتجاته ومقارنتها بمنتجات الفلاح ، ثم بإشارته إلى دخول الراعي إلى الأراضي الزراعية عنوة وبدون إذن من صاحبها الفلاح ، ما أضطر الفلاح إلى الرضوخ إلى الأمر الواقع ، ومن النصوص الأخرى التي تعرض نظرة الناس السلبية لحياة البداوة ، النص التالي الذي يرد فيه ما نصه : " المارتو الذين لا يعرفون الحبوب ... ، المارتو الذين لا يعرفون البيت ولا المدينة ، أجلاف الجبال (التلال) ... المارتو الذي يستخرج الكمأ ... ، الذي لا يثني ركبتيه (لزراعة الارض) ، الذي يأكل اللحم النيء ، الذي لا يمتلك منزلا طوال حياته ، الذي لا يدفن بعد موته ..." [٣٣] ، ومن ثم فإن أن البداوة وإن كان لها موطئ قدم في الواقع العراقي أنذاك ، إلا أنها لم تستطع أن تفرض هيمنتها على ذهنيته ، وبقيت الغلبة لصالح الحضارة حتى في ضمير الملوك ومن ذوي الأصول البدوية الذين تعاقبوا على حكم البلد مرات عديدة ، إذ كانوا دائما ينكرون أصولهم البدوية ، والإدعاء بدلا عن ذلك بأصول سهلية وإنتماء حضاري رافدي ، بل أن بعضهم أخذ يعيب حياة البدو وينال من قيمها ، وقد نتج من الإحتكاك بين البداوة والحضارة نشوء ديانة حاولت التوفيق بين قيمهما ونمط حياتهما ، وقد يكون من هؤلاء مؤسسي الديانة الأبراهيمية ، فلو وثقنا بدلالة كل من التوراة والإنجيل بشان أصل وزمن النبي إبراهيم ، لفهمنا جذور هذه الحركة ، ولماذا تحددت بهذا الشكل ؟ فقد مثلت رحلة إبراهيم من مدينة أور السومرية إلى مصر عبر بلاد الشام ، رحلة لأصول الحضارة من الموطن الذي نشأت فيه إلى بقية أنحاء الشرق الأدنى القديم ، وهو ما يتوافق مع الحقائق التي تقدمها الأبحاث الأثرية والتاريخية .

كما ميز الناس بين حياة المدينة وحياة الأرياف ، وخير دليل على ذلك ، ما عرضته ملحمة جلجامش عن انكيدو الريفي أو الوحشي ، الذي كان بلا عائلة ، والذي استميل من قبل بعض المعارضين لمواجهة عنجهية جلجامش وسطوته الظالمة ، إذ لم يجد هؤلاء أي صعوبة في إقناعه بالذهاب إلى أوروك وتحدي حاكمها المتجبر ، بعد أن

---

[٣٣] . جورج رو ، العراق القديم ، ص ٢٣٩

افهموه أهمية الحضارة ، وضرورة أن يعيش الإنسان في ظل مجتمع ما ، وان يستثمر طاقاته وإمكانياته فيهما ، وهو ما لا تتيحه له عيشته في البرية : " تعال يا انكيدو إلى اوروك المحصنة ، حيث يلبس الناس أبهى الحلل ، وفي كل يوم تقام الافراح كالعيد ، حيث ... غلمان ... الآسنو ... ، والفتيات ... الحسان ، ينفح منهن العطر والطيب ، اللواتي يخرجن العظماء من مضاجعهم " ، فكان لطباع الريفية أثرها في قبوله طلبهم ، ناهيك عما أشعلوه في نفسه من الرغبة والطموح في الحصول على مكانة ما في المجتمع ، ومع أن نتيجة المعركة التي أريد لها أن تحصل في يوم مقدس ، لم تنهي حكم جلجامش ، إلا أنها غيرت كثيرا من طباعه ، وجعلته يرضخ لمطالب انكيدو ، حتى أن أمه ننسون فرحت بذلك ، وباركت ما تمخض عن المعركة من صداقة بين البطلين ، ولا يقتصر النص على ما يقدمه من دلالة بشأن الفارق بين حياة المدينة وحياة الريف ، بل و يقدم أيضا دلالات أخرى ذات صلة بها ، من بينها : أهمية المعرفة واستغلال الإمكانيات بشكل صحيح ، وقيمة الحضارة أو المدنية في مقابل الجهل أو الهمجية ، ومع أن الملحمة لم تصرح بأصل انكيدو ، ولم تبرز إن كان من الريفيين أم من سواهم ، إلا أنها بلا شك تضم في متنها إشارات إلى تناشزات وصراعات حضارية ، وفي هذا النوع من الصراعات لا يمكن للأسوار أو الحصون أن تمنع الاختراق أو تضمن الإستقرار والأمان ، إنما الأصل في السلوك الجيد والعمل من اجل مصلحة الناس ، لذا لا غرابة في أن تتغير نظرة الناس لجلجامش من الكره والحقد إلى الحب والاعتزاز ، بعد أن تغيرت طباعه ، وتحسنت تصرفاته ومعاملته للناس .

سادسا : المظهر الأبداعي

من خلال معاينتنا للقى الأثرية العائدة لحضارة بلاد الرافدين ، نستطيع أن نؤشر مرحلتين رئيسيتين في تاريخ الأدب والفن العائد لهذه الحضارة ، الأولى : وتشمل مرحلتي فجر التاريخ والحضارة السومرية ، والثانية وتشمل المراحل التي تلتهما ، وذلك انطلاقا من السمات والخصائص التي تميز كل مرحلة عن الأخرى ، ففي

مجال الأدب ، نلاحظ أن معظم القطع الأدبية المهمة قد أنتجت في العصور السومرية ، وان معظم ما وصلنا من العهود التالية ، ليس سوى استنساخ أو محاكاة لتلك القطع ، يقول طه باقر في هذا الصدد : " على الرغم من أن غالبية الألواح المدونة بالأدب السومري والبابلي ومما جاء إلينا لحال التاريخ لا يتجاوز زمن تدوينها أواخر الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد إلا أن تلك القطع الأدبية قد تم إبداعها ونضجها في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد " [٣٤] ، وخير دليل على ذلك : نصوص ملحمة جلجامش التي جاءت بنسخ سومرية وبابلية ، فضلا عن مختلف النصوص الأدبية الأخرى : الملاحم والأساطير والأشعار والأمثال والمواعظ والحكم وغيرها ، التي كتب معظمها باللغتين السومرية والاكدية ، إذ جرى استنساخها مرارا وتكرارا من قبل السلالات الحاكمة في العراق القديم ، حتى أن غالبية النصوص الأدبية وجدت في مكتبة الملك الآشوري أشور بانيبال التي تعود إلى المئة السابعة قبل الميلاد ، ورغم أن لدينا نصوص مكتوبة بلغة واحدة ، إلا أن من المرجح إلى أن لهذه النصوص توائم لم يتم العثور عليها حتى الآن ، لكن ربما سيحصل ذلك في المستقبل ، بعد أن تتوسع وتتطور التنقيبات الأثرية ، لكن ما لدينا من نصوص يكفي لاعتبار المرحلة السومرية المرحلة الأساس في تدوين الأدب الرافديني ، وليس هذا وحسب ، بل لعلها المرحلة التي شهدت درجات عالية من الإبداع الأدبي لم يصل الأدب إلى مثلها بعد ذلك ، وابلغ دليل على أهمية نصوص المنتجة في هذه المرحلة ، تلك الإشارات الكثيرة التي تؤكد اهتمام ملوك بلاد الرافدين الذين جاءوا بعد العهد السومري بالبحث عن النصوص القديمة واستنساخها ، الأمر الذي أدى إلى حفظ الإبداعات الأدبية لهذه الحضارة ، ولم يقتصر الأمر على الأدب بل شمل ذلك الفن ، الذي شهد انتعاشا كبيرا في المرحلة السومرية ، إذ وصلتنا نماذج رائعة من الفنون السومرية تدل على دقة وإتقان صانعيها ، إذ لم يتم صنعها ما يضاهيها بعد ذلك ، ومما يدل أيضا على أن المرحلة السومرية هي المرحلة الأهم في مسيرة الفن

---

[٣٤] . طه باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ١٢ .

الرافدي ، الموضوعات الفنية الرائعة التي وصلتنا من هذه المرحلة [٣٥] ، أما نماذج هذه الإبداعات ، فقد تمثلت بقطع جميلة من الرسوم المنقوشة على الأختام بنوعيها الأسطواني والمنبسط ، و الأواني الفخارية وجدران المعابد والمسلات ، فضلا عن نماذج من النحت المجسم مثل : رأس الفتاة السومرية من الوركاء ، والذي عد من أهم النماذج في تاريخ الفن القديم ، ومسلة النسور التي يعود زمن إبداعها إلى عصر سلالة لكش الأولى ، وكنوز المقبرة الملكية في أور ، التي تحوي نماذج فنية مهمة أهمها : القيثارة السومرية وراية أور ، التي تحوي منظرا ملكيا يشهد عزفا موسيقيا تاريخيا ، فضلا عن رأس الملك الاكدي وتماثيل عديدة للأمير كوديا ملك سلالة لكش الثانية ، إذ اتسمت هذه التماثيل بدقة بديعة ومضامين متجردة من كل فخامة تعبيرية عدى التعابير التي يتطلبها العمل الفني ، ولعل ما يدل على اهتمام الفن السومري بالقضايا الحياتية المختلفة ، اهتمامه بشخصيات ليست بدرجة الملوك والكهنة ، وابلغ مثال على ذلك عثور المنقبين على تماثيل لمطربين وموسيقيين وكتبة ، من أمثال المطرب (أور نانشي) ، وتمثال لأحد الكتبة واسمه (دودو) ، أما المرحلة الثانية في تأريخ الفن فهي التي أعقبت سقوط أور عام ٢٠٠٦ ق.م ، فعلى الرغم من إننا نملك أعمال فنية رائعة وجميلة ، إلا أنها اتسمت بمضامين وأساليب مكررة ، وفيما عدى النحت الذي أشار المتخصصون إلى انه ازدهر كثيرا في العصر الآشوري الحديث ، لم ترتقي الفنون الرافدية إلى مستوى تتجاوز فيه مستواها في المرحلة السومرية ، والأمر ذاته ينطبق أيضا على فن الغناء والموسيقى ، اللذان تؤكد المصادر التاريخية تطورهما وازدهارهما في المرحلة السومرية ، وليس أدل على ذلك من معرفة السومريين بنوعي الغناء المعروفين حاليا في العراق : الغناء الحزين ويطلق على مغنيه اسم (الكالا) ، إذ يمارس هذا الغناء في المناسبات الدينية والحزينة ، والغناء

---

[٣٥] . اعتمدنا في تناولنا لموضوع الفنون الرافدينية لاسيما العمارة والنحت على المصدر التالي : أنطوان مورتكارت ، الفن في العراق القديم ، ترجمة : عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، (بغداد ، ١٩٧٥) .

المفرح ويطلق على مغنيه لقب (النار) [٣٦] ، ما يدل على استقلالية الفن في تلك المدة وإرتباطه بمواصفات ومعايير فنية راقية ، وقد تطور الغناء في المراحل السومرية حتى أصبح يشار له بالبنان ، كما تؤكد المصادر أن بعض الملوك امتهن الغناء أو العزف على الآلات الموسيقية ، كما الحال مع الملك (شولكي) ثاني ملوك سلالة أور الثالثة ، ولرواج الغناء وأهميته في تلك الآونة ، ظهرت طبقة من المغنين الجوالة أطلق عليهم (الاشتالو) بالسومرية (وزاميرو) بالاكدية [٣٧].

---

[٣٦] . فاضل عبد الواحد علي ، سومر اسطورة وملحمة ، (بغداد : الطبعة الثانية ، ٢٠٠٠) ، ص ٥٠ .

[٣٧] . صبحي انور رشيد ، الموسيقى ، حضارة العراق ، (بغداد ، ١٩٨٥) ، ص ٤١٨ .

الفصل الثالث

مرحلة التحدي ومواجهة الضد

المرحلة الثانية في تكوين العقل العراقي هي مرحلة التحدي ومواجهة الضد ، إذ أدت التحديات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي واجهتها البلاد في الالفين الثاني والأول قبل الميلاد إلى تكوين طبقة عقلية جديدة أخذت تدريجيا تغطي بتركيبها على الطبقة القديمة ، الأمر الذي تسبب في جمود العقل الإبداعي وتراجع مستوى الإنجاز الحضاري مقارنة بما كان عليه الحال في مرحلة التأسيس ، أما أهم العوامل التي أدت إلى ذلك فأهمها :

١- اختراق البداوة

يمكننا ان نعد اختراق البداوة للسهل من العوامل التي أسهمت في جمود العقل الإبداعي وتراجع مستوى الإنجاز الحضاري ، إذ بدأ هذا الاختراق منذ وقت مبكر ، أبتداءا من تغلغل الأكديين ، الذين تمكنوا من إنهاء إستقلال المدن السومرية وإنشاء وحدة سياسية تحت مسمى الأمبراطورية الأكدية (حدود ٢٣٥٠ – ٢٢٠٠ ق.م) ، لكن مستوى الإنجاز الحضاري لم يتضرر كثيرا من هذا الأختراق ، وذلك لأن الأكديين كانوا عند تكوينهم لكيانهم السياسي قد قطعوا شوطا كبيرا في مضمار تبني القيم الحضارية الرافدية ، فضلا عن المقاومة التي ابداها السكان المتحضرون ، التي كان لها الأثر الكبير في الحفاظ على البنية الحضارية للبلد ، فضلا عن البنى الدينية والأقتصادية ، كما نجح العقل الحضاري في إستيعاب صدمة الغزو الكوتي الذي اعقب حكم الأكديين ، وهؤلاء وان لم يكونوا من البدو إلا أنهم أيضا يعدون من الأقوام الهمجية المتخلفة ، لذا كانوا يشكلون خطرا كبيرا على التقدم الحضاري الحاصل انذاك ، وقد ادركت المدن السومرية حاجتها إلى الوحدة لوقف زحف الأقوام البدوية والجبلية ، فكان تأسيس سلالة أور الثالثة بمثابة إستجابة لهذا التحدي الكبير الذي كان يواجه الحضارة البشرية في مراحل نشوئها الأولى ، إلا أن هذا الإجراء لم

يكتب له الدوام ، فبعد قرن واحد تمكن البدو الآموريون من اختراق بلاد الرافدين من جهة الغرب ، وتأسيس سلالات آمورية في عدد من الحواضر الرافدية ، ما مهد لسقوط أور عام ٢٠٠٦ ق.م .

أما بداية السطوة البدوية على السهل الرسوبي فقد بدأت مع نهاية الالف الثاني وبداية الالف الاول قبل الميلاد ، ففي هذا الوقت تمكنت القبائل الآرامية من التغلغل في جنوب العراق وشماله ، مؤسسة عددا من المشيخات الآرامية ، التي هددت المدن البابلية ، ووضعت السلالات البابلية الحاكمة امام تحدي خطير ، أجبرها على التنازل عن سيادتها مقابل الحصول على الحماية من التغلغل البدوي ، وقد تمكن الآشوريين من كبح جماح هذا التغلغل ردحا من الزمن ، لكن دون ان يؤدي ذلك إلى القضاء عليه ، بل على العكس ، كان من نتيجة هذا التغلغل سقوط الدولة الآشورية نفسها ، ولم تستطع الدولة البابلية الحديثة كبح جماح البداوة على الرغم من احتفاظ المدن البابلية بقيمها الحضرية ، وقد نتج عن ذلك ظهور نمطين متنازعين : نمط الحضارة وهو موجود في قلة من المدن البابلية ، كمدن بابل وسبار وبورسبا وأور وأوروك ، ونمط البداوة وهو منتشر حول هذه المدن وقراها وصولا إلى البادية ، وربما لهذا السبب لم تتمكن البلاد من إزاحة الأحتلال الأجنبي ، لا بل قد اصبح هذا الأحتلال في كثير من الأحيان ، ضرورة لسكان المدن ، يقيهم سطوة البداوة ، وهذا ما حصل مرارا وتكرارا وصولا إلى عصرنا الحاضر .

٢- تأثير الثنائية النهرية

يبدو من خلال معاينة تاريخ بلدان العالم المختلفة ، ان للانهار دور اساسي في تشكيل طبيعة الحضارات ، لاسيما من ناحية كونها متجانسة ام لا ، وابلغ دليل على ذلك ، ما اتسمت به حضارة وادي النيل (مصر القديمة) من تجانس ووحدة عبرت بجلاء عن تاثير وحدانية النهر فيها ، وكذا الحال فيما يخص مناطق اخرى مثل : أحواض السند والكنج والراين .. الخ ، أما حضارة وادي الرافدين ، فقد اختلف الوضع فيها

كثيرا لوجود نهري دجلة والفرات ، وما يترتب عليهما من اختلاف بيئي ، الامر الذي وضع البلد تحت طائلة التنافس النهري ، الذي ينطلق من محاولة سكان كل نهر التفوق على سكان النهر الاخر ، هذا ناهيك عن اختلاف الاقوام التي سكنت ضفاف كل نهر منهما ، ففي حين سكنت الاقوام الجزرية على الضفاف الغربية لنهر الفرات وجدنا ان الاقوام الاخرى لا سيما القادمة من الشرق قد اختارت السكن شرق نهر دجلة ، ونتيجة لذلك انحصر السكان الاصليين في الوسط بين النهرين ، مع ان هذا الامر ليس قاعدة عامة ، فقد تنتقل بعض الاقوام من ضفة الى اخرى تبعا لظروفها ومصالحها ، ونتيجة لهذا التوزيع غير المتجانس ، اصبحنا نلاحظ بعض الاختلاف في العادات والتقاليد والافكار بين ضفة واخرى ، الأمر الذي دعم ما يمكن تسميته بالاستقطاب النهري ، حيث الصراع على اشده للهيمنة على مقدرات البلاد او توحيد السلطة السياسية فيها ، ومع ان هذا الامر لم يكن واضحا في البداية ، لعدم استيطان اعراق مختلفة اول الامر ، الا ان ذلك قد تغير بمرور الزمن ، حتى وجدنا ان الاختلافات والنزاعات اصبحت هي السائدة بمرور الايام .

٣- الاشتباك القيمي

من المعلوم ان السهل العراقي محاط بأربعة هضاب ، الاولى في الشرق وتمثلها الهضبة الايرانية ، والثانية في الجنوب وتمثلها هضبة الجزيرة العربية ، والثالثة في الغرب وتمثلها بادية الشام والرابعة في الشمال وتمثلها هضبة الاناضول ، ما جعله واقعا تحت تاثيرها المباشر وغير المباشر ، بما في ذلك محاولة سكانها التسلل اليه ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، او محاولة غزوه والقضاء على دوله ، الأمر الذي جعل منطقة السهل خاضعة على الدوام لضغط الاقوام الهضبية من الجهات الأربعة ، ابتداءا من اول غزو مشهود تاريخيا وهو الغزو الكوتي القادم من الشرق ، واستمرارا في الغزوات الهضبية التالية الامورية والكشية والارامية والميدية والفارسية ، ونتيجة لذلك برز صراع حاد بين قيم السهل و وقيم هذه الهضاب ، نتج عنه اشتباك قيمي تجاوز معنى الصراع التقليدي ، الأمر الذي جعل الشخصية

العراقية مزدوجة الولاء ، ليس بين ولاءها لقيمها الموروثة من تاريخها وحضارتها القديمة وولاءها للقيم الوافدة اليها من الهضاب المجاورة فحسب ، بل وبين ولاءها للقيم العائدة لهذه الهضبة او تلك ايضا ، الامر الذي وضع العقل العراقي في محنة كبيرة من الاختيار بين الانقياد للواقعية المستمدة من تجربته الحضارية الكبيرة والانقياد للعاطفة المرتبطة باشتباك القيم وصراعها المرير داخل الوسط العراقي .

٤- الاختلاط السكاني

نظرا لكثرة الشعوب التي قدمت إلى البلد ، فقد نشأ في البلد اختلاط سكاني كبير ، الأمر الذي يمكن ملاحظته في ملامح واشكال العراقيين التي يغلب عليها التنوع ، وذلك بسبب امتزاج الخصائص الجينية لهذه الشعوب بعضها مع بعض ، ما جعل كل فرد عراقي عبارة عن هجين جيني ، إذ يحتوي خصائص من كل أو بعض هذه الاعراق ، وهو ما يفسر بالطبع اختلاف الاشكال والسلوك والذكاء حتى ضمن العائلة الواحدة ، ومن الطبيعي ان يؤثر ذلك في العقل العراقي ، الذي أخذ يبتعد تدريجيا عن خصائصه القديمة .

٥- التاثير التراكمي للاضطراب السياسي

شهد العراق بسبب أرثه الحضاري وغناه الاقتصادي وانفتاحه الجغرافي العديد من الغزوات المدمرة القادمة من الهضاب المحاذية له ، الامر الذي جعله غالبا فاقدا لإستقراره السياسي ، هذا الاستقرار الضروري لنمو الحضارة وتطور الحياة الاجتماعية ، إذ أدت هذه الغزوات إلى ظهور ونمو حالة الاستبداد لمواجهة حالات الضعف المغرية للغزو والتمرد ، إذ يفضل السكان عادة الخضوع للاستبداد على التعرض للغزو والفوضى ، لما لذلك من مخاطر كبيرة على استقرار وأمن المجتمع ، ما جعل التاريخ العراقي عبارة عن سلسلة متتابعة من الغزاة والمستبدين ، الذين كان بعضهم يعقب البعض الآخر ، ونتيجة لذلك أخذت تطغى الوسائل العنيفة التي يستخدمها الملوك ضد معارضيهم ، والبذخ في حياة القصور ، إذ يعد قصر(زمري

لم) ملك ماري خير مثال مهم لذلك ، هذا ناهيك عن ظهور مفهوم البلاط ، بكل ما فيه من اطر بريتوكولية خاصة بمقابلة الملوك ، فضلا عن ظهور التمييز الإجتماعي ، الذي تحدد بتقسيم المجتمع إلى طبقات متباينة في الثروة والمنزلة والإمتيازات ، وذلك إبتداءا من العصر البابلي القديم ، وهو ما أثر بالتاكيد على الشخصية العراقية التي بدت متذبذبة وقلقة ، كما تشير إلى ذلك نصوص عدة منها : النص الموسوم بـ (المونولوج) الذي يحوي ارتيابا عميقا من المعتقدات التي يعتنقها الإنسان ، وعلى رأس ذلك ، تناقض سلوك الالهة الذي لا يمكن فهم مغزاه ، ما يدل على بداية الارتياب في المعتقدات الدينية ، فضلا عن شعور الفرد بعجز هذه المعتقدات عن الإجابة على تساؤلاته ، الشيء نفسه يصح فيما يخص نص (الحوار) ، الذي يحمل صفة الإرتياب أيضا [٣٨]، لكن في الجوانب الاجتماعية لاسيما القيم التي يتبناها المجتمع ، التي أخذ يشكك في صحتها و صدقها .

الأحداث السياسية وأثرها في تكوين العقل العراقي

كثيرة هي الأحداث السياسية التي شهدها هذا البلد العريق ، ولكن قليلة منها تلك الأحداث التي كان لها صدى سياسي وإجتماعي وإقتصادي كبير ، فضلا عن التأثير في العقل الحضاري وإنتاج واقع جديد ، ان أهم حدث يمكن ان نعده بداية المرحلة الثانية من تكوين العقل العراقي ، هو الحدث المتمثل بسقوط اور عام ٢٠٠٦ ق.م على يد الاموريين والعيلاميين ، أما لماذا هذا التاريخ دون سواه ؟ فهذا لإننا بدأنا نشهد تراجعا في كّم ونوع المنجزات الحضارية للبلد ، إذ لم تقتصر نتائج هذا الحدث على سقوط سلالة شهيرة حاكمة هي سلالة اور الثالثة ، او امبراطورية عظيمة هي امبراطورية سومر واكد الواسعة المترامية الأطراف ، او نهاية الدور السياسي للسومريين وحسب ، إنما شملت ايضا أمورا أخرى أخطر بكثير ، ومع ان ما ذكرنا

[٣٨] . للإطلاع على هذين النصين ينظر : بوتيرو ، بلاد الرافدين : الكتابة – العقل – الآلهة ، صفحات مختلفة .

هي امور مهمة يجدر بأي باحث التوقف عندها ودراستها بعمق ، الا ان الامر الأهم الذي لم يتم الاهتمام به بشكل اكبر ، هو دراسة التأثير الحضاري لهذا الحدث ، وعلاقته بشيوع نمط عقلي معين ، إذ أن حدثا كهذا كان له أثرا عميقا في البنية الحضارية لبلاد الرافدين ، ومع ان فعاليتها لم تختفي تماما ، الا انه كان له أثر أكبر في وضع حد لتوثبها وتقدمها الحضاري ، ثم توالت الأحداث بعد ذلك ، وصولا إلى الحدث الأكبر الذي تمثل بسقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م ، وسنتكلم عن هذه الأحداث بحسب أسبقيتها الزمنية وهي :

(أ) سقوط مدينة اور سنة ٢٠٠٦ قبل الميلاد

في هذا التاريخ تعرض البلاد لهجمات متعددة من الشرق والغرب ، ففي الوقت الذي تغلغل فيه الآموريون الجزريون في أغلب مدن العراق وفرضوا سيطرتهم السياسية عليها ، تعرضت اور لهجوم عيلامي تسببت في دمارها وسقوطها ، إذ حصل هذا الامر في حدود ٢٠٠٦ قبل الميلاد ، ويبدو من سير الاحداث أن الغزاة استغلوا انشغال الدولة بمواجهة التغلغل الآموري ، والظروف الصعبة التي عاشتها العاصمة آنذاك ، نتيجة إنقطاع طرق المواصلات وتوقف التمويل الغذائي ، فداهموا العاصمة وهي منشغلة بهذه المشاكل ، إذ قاموا بنهب المدينة ، وتخريب كل ما طالته ايديهم منها ، وقتل الكثير من سكانها حتى أمتلئت شوارعها وازقتها بالجثث ، إذ يصف احد الشعراء حادثة سقوط أور بما يلي : " اكتست مداخل المدينة لا بشظايا الخزف بل بالموتى من الرجال ، وفغرت الجدران وامتلأت البوابات والطرق بركام الموتى ، وفي الشوارع الفسيحة حيث كانت تجتمع الجماهير في الأعياد ، تبعثرت الجثث في الطرقات كلها ، والأزقة كلها تبعثرت الجثث ، وفي الحقول التي كانت تموج يوما بالراقصين تراكمت الأجساد وامتلأت بدمائها حفر الأرض كالمعدن المصهور في قالب ، وذابت الأجساد كما يذوب الدهن في حرارة الشمس " [٣٩] ،

[٣٩] . انظر :هنري فرانكفورت وآخرون ، ما قبل الفلسفة ، ص١٦٦ .

ومن المرجح أن التخريب طال أيضا المؤسسات العلمية من مدارس ومكتبات ، الأمر الذي يفسر حالة الظلام الذي عاشته البلاد خلال تلك الفترة العصيبة ، وندرة المصادر التاريخية التي تتكلم عن أوضاعها ، ما انعكس جليا على حالة البلاد العامة ، التي عادت مرة اخرى إلى حالة الانقسام ، إذ تزعمت مدينتا أيسن ولارسا الوضع في الجنوب ، تاركة الوسط والشمال لنفوذ دويلات بابل واشنونا وماري واشور ودويلات اخرى صغيرة ، الأمر الذي تسبب بتراجع نسبة السومريين مقارنة بالساميين ، الذين ازدادت اعدادهم بشكل كبير ، واذا كان التغلب البدوي قد ظهر جليا خلال هذه المدة ، إلا أن رسوخه لم يتم إلا بعد ذلك بقرنين ، وذلك بسيادة السلالات البابلية المتعاقبة ، ومما يؤكد لنا التأثير الكبير لهذا الحدث ، هو ذلك التراجع الحاد في حجم الإنجازات الحضارية ، والاكتفاء بالحفاظ على مستوى التطور القائم آنذاك ، إذ أسهم ملوك عدة في حفظ الموروث الرافديني وحمايته من الضياع ، وذلك بإشرافهم على استنساخ وجمع النصوص المسمارية وحفظها في خزائن أعدت لهذا الغرض ، ومن المحتمل أن من اسباب ذلك : الخوف من تعرض هذا الموروث إلى الدمار والتخريب بتأثير الغزوات التي يتعرض لها البلد بإستمرار ، الامر الذي يفسر كثرة المكتبات في العراق القديم ، و التي تضم في العادة مختلف العلوم والمعارف الرافدية ، ولعل أهم ما تميزت به هذه المدة الزمنية هو محاولة السلالات الحاكمة اثبات ولائها لهذا الموروث العريق ، ببذلها الجهود الكبيرة لإجل حفظه وحمايته ، ومن أهم هذه السلالات : سلالة ايسن الاولى ، التي يحتمل أن لها علاقة قوية بالسومريين ، إذ يتجلى ذلك في قيامهم بأعمال مهمة ، شكلت جزءا من التقليد الذي أخذت السلالات الحاكمة بممارسته لحماية التراث الحضاري للبلاد ، وأهم ما قاموا به في هذا المجال ، محاولتهم احياء التراث الرافدي الأدبي والعلمي ، واستنساخ كل ما يمكنهم استنساخه من العلوم والآداب الرافدية ، فضلا عن الأعتزاز بالثقافة السومرية وتدوين ثاني أقدم القوانين المعروفة في تاريخ البشر ، بما في ذلك تبني قاعدة التعويض بدل القصاص في محاسبة المخطئين ، الأمر الذي يعد حالة متقدمة

حتى في عرفنا الحالي ، إلا أن هذه السلالة المثقفة لم يكتب لها النجاح طويلا ، فقد واجهت بعد مدة من الزمن منافسة حادة من ملوك سلالة لارسا المجاورة ، الذين ما فتئوا يتحرشون بها ، مستفيدين من امكانياتهم العسكرية الكبيرة ، فضلا عن إحتضانهم للقبائل الامورية الجزرية ، إذ اصبح بمقدورهم تحدي أيسن والنيل منها ، فقام ملكهم (كونكونوم) بمهاجمة ايسن واحتلال بعض المواقع منها ، ثم تبع ذلك هجمات منظمة ادت بالنهاية إلى سقوط سلالة ايسن ، ولكن قبل ان يهنأ (اللارسيون) بهذا النصر ، فاجأهم حمورابي بغزوه الشهير ، الذي حطم سلالتهم وجعلهم جزءا من دولته الكبيرة [٤٠] ، لقد شهد هذا العصر حروبا عدة كانت نتيجتها في صالح حمورابي الذي لم يكن قائدا عسكريا ممتازا فحسب بل وسياسي ناجح ايضا ، إذ مبدؤه مراقبة الاحداث السياسية وتحريكها من بعيد بما يجعلها تخدم اغراضه التوسعية ، وبعد أن أنجز توحيد البلاد ، تفرغ لأعماله المدنية التي من أهمها : اصداره للقانون الذي عرف بأسمه ، والذي مثل خاتمة للقوانين التي صدرت في البلاد منذ ما يزيد على خمسمائة سنة [٤١] ، ومما يجدر توضيحه بشأن هذا القانون ، هو إعتماده قاعدة القصاص بدل التعويض في محاسبة المذنبين ، الأمر الذي يضعنا أمام تساؤل مهم حول الدافع الذي أدى إلى صدور هذا القانون بصيغته المتشددة ، هل اندفع إلى ذلك انطلاقا من أصله البدوي (لانه من الآموريين الجزريين) ام هناك سبب آخر دفعه إلى ذلك ؟ وللاجابة على ذلك ، لابد لنا من قراءة الاحداث السياسية لذلك العصر ، إذ ستعرض لنا حقائق مهمة منها : إنتشار الاقوام الجزرية (الآمورية) وتغلبها العددي على الآقوام السابقة لاسيما السومريين ، فضلا عن شيوع حالة الفوضى

---

[٤٠] . حول احداث هذا العصر ينظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص٤١٢-٤٣١

[٤١] . صدرت في البلاد خلال هذه الفتره جمله من القوانين اهمها : قانون اور_نمو ملك سلاله اور الاولى ، ثم قانون لبت عشتار احد ملوك ايسن ، وقانون اشنونا ، وأخيرا أوسعها قانون حمورابي الذي تضمن أكثر من٣٠٠ ماده قانونيه ، ينظر: جان بوتيرو ، بلاد الرافدين .. ، ص٢٠٣_٢٤٠ .

والاضطراب في البلاد ، وأنتشار مظاهر الجريمة المنظمة ، وتفشي العنف والفساد ، الأمر الذي دفع هذا الملك الحازم إلى كتابة هذا القانون المتشدد ، ليكون أداته في السيطرة على البلاد ، وفرض الأمن والسلام فيها ، يقول حمورابي في اسباب كتابة هذا القانون : " حينما خولني الهي- مردوخ - مهمة تنظيم شعبي والسير ببلادي في الطريق السوي ، وطدت العدل والاستقامة لاوفر الرخاء لشعبي " وفي مكان اخر من القانون يقول ايضا : " حملت في حضني شعوب سومر واكد ، وبفضل الحماية الالهية التي شملتني ، ازدهرت ، ولم افتأ اسوسها بسلام واحميها بعقلي ، لكي امنع الاقوياء من ان يظلموا الضعفاء ، ولكي أرد الحق إلى المهملين والارامل[٤٢] " ، لكن يبدو ان اجراؤه هذا لم يكتب له النجاح طويلا ، بدليل ان خليفته وابنه (سمسوايلونا) فشل في مواجهة الاخطار ، ولم يستطع ان يمارس دور أبيه الحازم إلا في جزء من مدة حكمه ، فكان ان عادت البلاد مرة اخرى إلى الفوضى ، تخللتها نشوء سلالة حاكمة في منطقة الاهوار وحولها ، اطلق عليها تاريخيا بسلالة القطر البحري [٤٣] ، ومن المرجح رغم ندرة النصوص المتوفرة ، ان هذه السلالة ضمت تحت لوائها كثيرا من العناصر السومرية وغيرهم من سكان البلاد القدماء ، بدليل سيطرتها على بلاد سومر ، وقد فشل ابن حمورابي في دحرها واستعادة السيطرة عليها ، ما يدل على تمتع هذه الدولة بالقوة الكافية ، فضلا عن احتمائها بالاهوار في مواجهتها لأي هجوم لا تستطيع رده ، ومن المحتمل ان الدافع الاساس لنشوؤها واستمرارها ، نابع من رغبة السومريين في استعادة دورهم السياسي القديم ، وقد دشن ظهور هذه الدولة ، وضع الأهوار كمنطقة معزولة عن قبضة الدولة ، ومكانا لإيواء الناقمين و المعارضين لشتى الأنظمة الحاكمة التي تعاقبت على البلاد ، كما شهد هذا العصر نهوض بلاد اشور ، التي أخذت منذ تلك اللحظة بالإستقلال عن الجنوب وتكوين

---

[٤٢] . جان بوتيرو ، بلاد الرافدين .. ، ص٢١٩ .

[٤٣] . طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص٤٣٤

نظامها السياسي الخاص [٤٤] ، وقد تمثلت أبرز أعمال هذا العصر بإهتمام الملوك بحفظ التراث الرافدي ، ما جعل من هذا العصر أحد أهم عصور التدوين التي شهدتها حضارة بلاد الرافدين ، بدليل كثرة النصوص المسمارية التي وصلتنا منه ، والتي اشتملت على جوانب معرفية مختلفة مثل : الطب والفلك والرياضيات والمعاجم .. الخ ، واذا كان هذا العصر قد نجح في الحفاظ على مستوى التقدم القديم ، واظهر لنا نتائج علمية باهرة ، لاسيما في مجالات الفلك والرياضيات والفلسفة ، فأنه في المقابل فشل في ادامة التطور في جوانب اخرى مثل : الفنون واللاهوت وبعض العلوم ، ما يعني أن التقدم الحضاري للبلاد أخذ يتضاءل تدريجيا ، وأن الأمر لم يتغير حتى بمجيء سلالة جديدة تزعمها الكشيون الهندو – أوربيون سنة ١٥٩٥ قبل الميلاد ، ثم ما لبثوا أن تمكنوا من استعادة الوحدة السياسية للبلاد أثناء حكم ملكهم (اولام بورياش) ، وذلك بإسقاطهم الكيان البابلي - السومري (سلالة القطر البحري) ، التي دعيت ايضا بسلالة بابل الثانية ،[٤٥] ، ويبدو ان هؤلاء الأقوام كانوا من طينة الآموريين ، بحكم خضوعهم لتقاليد البلاد الحضارية ، بما في ذلك تبني اللغتين الاكدية والسومرية و الخط المسماري في التدوين ، فضلا عن إشرافهم على حماية التراث الحضاري واهتمامهم بالمعابد ، لاسيما الواقعة في المنطقة السومرية ، ومواصلة عمارتها وتزيينها بالمعادن الثمينة المستوردة من الخارج ، وقد عرف الكشيون بنشاطهم الدبلوماسي الكبير ، الذي أثمر عن بناء علاقات دبلوماسية مع كثير من الأقطار وعلى رأسها مصر ، إذ نتج عن تطور العلاقات الدبلوماسية بين شعوب المنطقة ، إرتقاء اللغة الاكدية وتحولها إلى لغة دبلوماسية ، فيما أصبح لبلاط بابل مكانة مرموقة بين بلاطات الدول الأخرى ، الأمر الذي زاد من تبني الميتانيين والحيثيين وهي من الشعوب الهندواوربية للحضارة العراقية القديمة ، ومن ثم يمكن عد التبني الكشي لقيم وتراث حضارة بلاد الرافدين ، بكونه دليلا على قوة ومتانة هذه

---

[٤٤] . الصدر نفسه ، ص٤٨٧

[٤٥] . حول أحداث حكم الكشيين ينظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص ٤٤٨_٤٦٣ .

الحضارة ، وصمودها بوجه عوادي الزمن ، لأن اندماج الأقوام الجزرية معها ، فسر أحيانا على انه نابع من الصلات القديمة بين السهل العراقي ومواطن هذه الاقوام في الجزيرة العربية ، أما الأقوام الأخرى وعلى رأسهم الكشيون ، فلابد ان يكون تبنيهم للتراث الرافديني ، ناجم من اعجابهم به وشعورهم بقيمته الكبيرة ، ومن ثم لم يشعر العراقي القديم بأنه اقل مستوى من الوافدين إليه ، ايا كانت اعراقهم أو كانوا ممتلكين للسلطة السياسية ، لإنه دائما كان يملك ان يباهلهم بقيمه وتراثه العريق الذي يتبنوه هم ، الأمر الذي جعل هذه الاقوام جزرية كانت أم هندو – أوربية تعلن انتمائها الكامل لحضارة بلاد الرافدين ، وتتبرأ في المجمل من كل ما يمت لإصلها من صلة ، كما هو الحال في افتخار الملوك الآموريون الجزريون ببابليتهم (كما رأينا مع حمورابي على سبيل المثال) ، ونكرانهم الشديد لأصلهم البدوي ، او كما فعل الكشيون وهم من الاقوام الزاكروسية الجبلية (نسبة الى جبال زاكروس) ، عندما أهملوا كل ما يمت لتراثهم السابق بصلة ، ومارسوا دورهم كحكام وطنيين ، حتى اننا نستطيع ان نعد عصرهم ، احد العصور المجيدة في مجالات عدة من بينها : أزدهار الحركة العمرانية ، وبعث التراث القديم وما إلى ذلك ، لكن الإضطرابات السياسية التي شهدتها البلاد في أواخر حكم الكشيين وفي أعقابهم ، كانت من الشدة بحيث نجم عنها إنهيار مؤسسة الدولة ، ودخول موجات من القبائل الجبلية والصحراوية إلى البلاد ، فضلا عن تدهور الإنتاج الزراعي ، وتوقف التجارة ، وإنحدار العلوم والمعارف ، إذ بقيت بابل تسير من تدهور إلى تدهور حتى مجيء سلالتها الأخيرة في نهاية العقد السابع قبل الميلاد ، في مقابل ذلك كان الاشوريون في حالة نهوض مستمر ، إذ تمكنوا في ظرف عقود قليلة من بناء أعتى الامبراطوريات التي شهدها التاريخ ، إذ بلغت إمبراطوريتهم ذروة توسعها في حكم الملوك بين عهد الملك ادد نيراري الثاني في نهاية القرن العاشر قبل الميلاد ، وعهد الملك اشور بانيبال نهاية القرن السابع قبل الميلاد ، الذي عد اخر الملوك الآشوريون الأقوياء ، ومع ان الدولة الاشورية قد امتازت بنزعتها العسكرية غالبا ، الا انها شهدت ايضا انجازات

معمارية وفنية وثقافية مهمة ، حتى ان بعض ملوكها لاسيما الملك اشور بانيبال امتاز بمعرفته بعلوم الاولين ورغبته الكبيرة في التثقف والتعلم ، يقول في احد نصوصه : " حصلت على النصوص الخاصة بالربه ندابا واستقيت المعارف الخاصة بالكتبة وحذقت ايات السماء والارض ... ودرست ظواهر السماء وحللت قضايا عويصة في القسمة والضرب واتقنت الكتابة السومرية والاكدية وكان يطيب لي ان اقرا الاحجار والانصاب المكتوبة حتى من ازمان ما قبل الطوفان " [٤٦]وعلى الرغم من نجاحات آشور العسكرية ، الا انها لم تصمد في نهاية الأمر ، عندما تحالف ضدها البابليون والميديون (مملكة تقع في شمال غرب ايران) ، فإنهارت بسرعة سنة ٦١٢ ق.م ، فاسحة المجال لنشوء الدولة البابلية الاخيرة ، لكن هذه الدولة التي يفترض انها تمثل الحضارة العراقية القديمة ، وتنتمي الى عقلها الحضاري ، كانت في الواقع تعاني من الاحتضار السياسي منذ اللحظة التي نشأت فيها ، والسبب لإستمرار تدفق القبائل البدوية التي لم تجد ما يمنعها من النزوح الى البلاد ، فيما كان لسياسة الملوك الاشوريين السابقة في التهجير ، دورها الكبير في الأتيان بعناصر ايرانية وسورية واناضولية وإسكانها المنطقة ، الأمر الذي أوجد إختلاطا كبيرا لم تستطع الأنظمة السياسية المتعاقبة استيعابه وصهره في بودقة واحدة ، الأمر الذي أسهم في أنهيار البلاد السياسي .

سقوط بابل سنة ٥٣٩ ق.م

مثل سقوط بابل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد [٤٧] ، حدثا مهما بكل المقاييس ، ليس لانه أنهى حكم سلالة حاكمة فحسب ، بل لأنه اشر نهاية مفهوم الدولة العراقية القديمة ، أما كيف أستطاع الاخمينيون إسقاط بابل ؟ فقد تم لهم الأمر بعد أن استغلوا الثورة الدينية الكبيرة التي قام بها كهنة مردوخ ضد الملك نابونائيد ، ردا على أنزاله لمرتبة الإله

---

[٤٦] . بهيجة خليل اسماعيل ، الكتابة ، حضارة العراق ، (بغداد ، ١٩٨٥) ، ص ٢٧٠ .

[٤٧] . حول الحكم الاخميني لبابل ينظر : طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص٥٧٤_ ٥٨٠ .

مردوخ ورفعه لمرتبة الإله (سين) إله القمر ، لإستمالة الأقوام الجزرية التي تعبد هذا الإله ، أما حملاته نحو داخل الجزيرة العربية ، التي ربما كان لها علاقة بتبنيه لديانة جديدة ، فقد كان أثرها الوحيد ، في أنها زادت من تعقيد الأمور ، ورفعت من وتيرة المشاكل ، بما في ذلك إستغلال كورش الثاني لغياب الملك في الأتصال ببعض الكهنة و قادة الجيش ومنهم غوبارو ، الذي أسهم في السيطرة على بابل ، بعد بعد أن هزم أبن الملك البابلي المسمى (بل شار اوصر) ، أي ان سقوط بابل لم يتم من خلال حملة مباشرة ، بل وهو الأرجح كثيرا ، أنه جرى من خلال مواكبة الغزو لتمرد داخلي قاده كهنة مردوخ وبعض قادة الجيش ، لكن البابليين ادركوا وبسرعة انهم ارتكبوا خطأً كبيرا ، وان التغيير الذي جرى في بلادهم لم يكن في صالحهم ، ولعل هذا كان موجودا في الأوساط الواعية المثقفة دون الوسط الشعبي ، الأمر الذي عجل بظهور جماعات مقاومة رفعت الشعار الوطني ، وحملت أسم الملك البابلي نبوخذ نصر ، إذ قاد شخص اسمه (ندبتو بيل) ثورة عام ٥٢٢ قبل الميلاد ، ملقبا نفسه بـ نبوخذ نصر الثالث ، اعقبه بعد مدة قصيرة شخصا لقب نفسه بـ نبوخذ نصر الرابع ، ثم تكررت الثورات ، فثار (بيل شماني) في زمن الملك (احشوريش) ، اعقبه (شمش اريبا) ، لكن هذه الثورات لم يكن لها ان تنجح ، لقوة الأمبراطورية الفارسية أولا ولانعدام التأييد الشعبي لها ثانيا ، لاسيما في ظل الصدمة الحضارية التي أوجدها الواقع (الكوزمو بوليتاري) الجديد .

لقد نشأ عن سقوط بابل واقع حضاري جديد ، تمثل بتبني الأمبراطورية الفارسية الأخمينية للحضارة الرافدية القديمة ، مع أنهم مجدوا في الوقت ذاته ، أعرافهم وقيمهم القومية ، كما حاولوا تبني سياسة اكثر اعتدالا مع الشعوب الأخرى ، لاسيما الجزريين والمجموعات المحلية المصرية والسورية والآناضولية ، فكانت النتيجة تكوين هجين حضاري من الحضارة البابلية وحضارات المنطقة الأخرى ، لذا سهل على الاغريق الدخول الى الامبراطورية الاخمينية و اختراقها ثقافيا قبل أن يداهموها

عسكريا ، وفي هذا العصر نشأ الدين الزرادشتي[٤٨] ، الذي يعتقد أنه نتاج إمتزاج المعتقدات الدينية للأقوام الهندو – أوربية مع الديانة العراقية القديمة ، إذ أن الديانة الزرادشتية هي بالمجمل ديانة جديدة على الوسط الفارسي ، وتتناقض مع ايمانهم السابق بآلهه متعددة ، لذا جاء تبنيهم لنزعة التوحيد بعد تعرفهم على المحاولات التوحيدية التي شهدتها بلاد الرافدين لاسيما حركة التوحيد الديني التي قادها (نابونائيد) آخر الملوك البابليين ، إذ لم يستطع هذا الملك التوفيق بين الديانة التي يدعو لها والممثلة بعبادة (سين) إله القمر والديانة الأصلية لمدينة بابل المتمثلة بعبادة (مردوخ) ، فكان ان تسبب الأمر بسقوطه السياسي ، الأمر الذي ربما ألهم الكهنة الفرس للقول بالثنائية ، أي الإيمان بوجود قوتين إلهيتين تتحكمان في الكون ، ومن ثم فإن التراجع الحضاري الرافدي كان تراجعا نسبيا ، وفي مجالات معينة ، فيما بقي ابداعهم في مجالات أخرى كما هو الحال مع علمي الرياضيات والفلك ، ولعل أفضل انجاز يمكن ان يحسب للرافديين في تلك المدة ، ما سجل لهم من حرص كبير على قيمهم وحضارتهم ومواجهتهم كل الاختراقات الحضارية بمتانة وصلابة ، الأمر الذي مكنهم بأن يحافظوا على محتوى حضارتهم القديمة وان تغيرت قليلا في الشكل أو تقلصت منافذ الأبداع فيها ، كما حصل تأثير متبادل بين البابليين واليهود ، تغيرت فيه التعاليم الدينية لكلا الطرفين تغييرا كبيرا ، ومن الأحداث الدينية المميزة لهذا العصر ، نشوء طائفة الصابئة كإحدى الطوائف الرافدية المتأثرة بالواقع الجديد ، إذ تتمثل في ديانتهم مفاهيم دينية لم يكن للبابليين عهد بها ، كالجنة والنار والملائكة والشياطين ، ويبدو ان المحور الأساس لهذه العملية ، هو لتبرير الأحداث التي مرت بها البلاد على مدى التاريخ ، تبريرا دينيا (أي من وجهة نظر هذه الديانة) ، ومن ثم أخذ العقل بالإنحدار نحو الجدل الديني الذي كان غائبا في العصور الماضية .

---

[٤٨] . على الرغم من الشكوك التي اثيرت حول حقيقه زرادشت فقد اصبح من شبه المؤكد الارتكان الى حقيقته لاسيما بعد الدراسه المهمه التي قدمها جاكسون في كتابه (حياة زرادشت) . ينظر: محمد علي ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام ، (الاسكندريه ١٩٨٤) ، ص ٧٦_٧٧ .

سقوط بابل على يد الأسكندر المقدوني

يعد سقوط بابل بيد الاسكندر المقدوني سنة ٣٣١ قبل الميلاد ، البداية الرسمية للاحتكاك البابلي - اليوناني ، على الرغم من أن لهذا الاحتكاك جذور ضاربة في القدم ، وربما كان لهذه الجذور دور ما في نشوء الحضارة اليونانية ، لكن الزمن الذي كان فيه اليونانيون يستوردون حضارتهم من الاخرين ولى وأصبح جزءا من الماضي ، وحل محله الزمن الذي أصبح اليونانيون فيه أصحاب حضارة ناضجة قابلة للتسويق للآخرين ، وقد ترسخ ذلك بعد أن تمت لهم السيطرة على العالم القديم ، أثر هزيمتهم للدولة الأخمينية [٤٩] ، إلا أن سيطرتهم لم تكن على درجة واحدة من القوة في عموم الشرق الأدنى القديم ، إذ بينما تبدو قوية وملموسة في أقطاره الغربية (مصر ، سوريا ، اسيا الصغرى) ، فإنها بعكس ذلك ، تبدو ضعيفة و محدودة في أقطاره الشرقية خاصة العراق ، بدليل قلة مخلفات هذه الحضارة في الافكار والعقائد السائدة آنذاك ، ولعل لذلك علاقة بإنهيار حكمها في وقت أقصر من إنهيارها في البلدان الأخرى ، إلا أن حقيقة أن الهيمنة اليونانية ليست قصيرة الى الحد الذي ينتفي فيها حصول أي تأثير ملموس او ذا طابع نوعي ، هو مما يدل على متانة الدفاع الذاتي للعقل العراقي ، وعلى قوة الرد الرافدي الحضاري ، حتى ان اليونانيين انفسهم اعجبوا بذلك ، وبقوا طوال حكمهم للعراق يتلقبون بالقاب ملوكه القدامى ويرعون معابده [٥٠] ، وبدلا من ان يغدو العراق قطرا هيلنيا وحكامه ملوكا يونانيين ، حصل العكس ، إذ بقي العراق رافديا فيما حكامه الاجانب يتصرفون في أحيان كثيرة

---

[٤٩] . " منذ فتوحات الاسكندر في النصف الاول من القرن الرابع قبل الميلاد وامتدادا الى نهاية العصور القديمة بل الى ما بعدها في بعض الحالات ، اضحت اليونانية بصيغتها الكونية المشتركة هي لغة الكتابة والثقافة العالمية لا في اثينا وحدها بل كذلك في الاسكندرية وانطاكيا وفرغامس ودمشق والرها ونصيبين وحران وجنديسابور ... " : جورج طرابيشي ، نقد نقد العقل العربي : نظرية العقل ، دار الساقي ، (بيروت ، ١٩٩٦) ، ص١٢٣ .

[٥٠] . في نص مسماري يعود الى الملك السلوقي انطيوخس الاول ، اشار النص الى الملك بلقب حامي أي - ساكيلا و أي- زيدا (وهما معبد الاله مردوخ في بابل ونابو في بورسيبا على التوالي) وانه جلب بيديه الاجرات الاولى من بلاد الحيثيين لهذين المعبدين . ينظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص٥٩٧ .

كحكام وطنيون ، وعلى الرغم من تطور الحضارة الهلينية ، إلا أن الحضارة العراقية لم تفقد ألمعيتها ، وبالأخص في مجالي الفلك والرياضيات[٥١] ، لكن على الرغم من بقاء الديانة الرافدية ديانة رسمية للبلاد في عموم العصر السلوقي ، والى ما بعده ايضا ، الى ان ديانات أخرى تواجدت معها ، منها : الديانة الزرادشتية في نطاق الجالية الفارسية ومن تأثر بها ، والديانة اليهودية في نطاق الجالية اليهودية ، هذا ناهيك عن الديانة الصابئية ، والديانة اليونانية الوافدة مع الفاتحين ، ومما يلاحظ ، ان السلوقيين على الرغم من تحمسهم الكبير للهيلنية ، لم يتخذوا أي اجراء ينم عن رغبة في فرضها على العراقيين ، على غرار ما فعله البطالمة في مصر ، عندما اقدم ملكهم بطليموس الاول على اختراع ديانة جديدة تحمل عناصر مشتركة من الديانتين المصرية واليونانية ، هي ديانة الإله سرابيس [٥٢] ، فالسلوقيين ربما كانوا يعلمون بصعوبة ذلك في بلاد بابل ، خصوصا وهم يرون ضعف تأثر البابليين بالهيلينية ، ما يعني انهم ربما كانوا يخشون من ان يسبب ذلك نقمة البابليين ، خصوصا وقد كانوا بأحوج ما يكون لتلقي دعمهم نظرا لإشتباكهم مع البطالمة في الحروب المسماة بالسورية ، لوقوعها داخل الأراضي السورية ، لكن السلوقيين لم يكونوا معتدلين دائما ، وربما يفسر هذا خسارتهم السريعة لبلاد الرافدين ، اذ مارسوا احيانا أفعالا تتنافى مع سياستهم العامة ، وتصرفوا كملوك هيلينيين ، ومن ذلك محاولاتهم العديدة إفراغ المدن البابلية من سكانها ونقلهم الى مدن اخرى بنوها بأنفسهم ، ومن ذلك قيام الملك سلوقس الاول بنقل أغلب سكان بابل الى مدينته اليونانية (سلوقية دجلة) ، الأمر الذي فسره بعض المؤرخين ، برغبة هذا الملك القضاء على دور مدينة بابل وما تمثله للبلاد من قيمة ورمز ، ولعل مما يدل على

---

[٥١] . في شهادة لاحد المؤرخين (ان علم التنجيم البابلي بما له من لبوس العلم الدقيق بمجال التنبؤ بالمستقبل اكثر تقدما وعقلانية بما لا يقاس من العرافة اليونانية) انظر : جرج طرابيشي ، العقل المستقيل في الاسلام ، ص٢٥١ عن : امرانتز كومونت ، الديانات الشرقية في الوثنية الرومانية ، (باريس ١٩٦٣) ، ص١٥١ _ ١٦٥ .

[٥٢] . مصطفى العبادي ، العصر الهيلنستي (مصر) ، (بيروت ، ١٩٨١) ، ص٥٠ _ ٥٣ .

هذا الهدف استمرار هذه السياسة من ملوك اخرين جاءوا بعده إلى الحكم [٥٣] ، فضلا عما بذلوه من جهود في نشر الثقافة الهيلنية في عموم البلاد ، لكنهم حين ادركوا فشل سياستهم هذه ، عدلوا عنها الى سياسة اكثر مرونة واعتدال في التعامل مع موروث البلاد الحضاري ، ونتيجة لسياساتهم المتذبذبة ، فقد خسروا ولاء السكان الذين سرعان ما تحول ولائهم إلى الفرثيين (من الاقوام السيكثية الهضبية) ، حكام البلاد الجدد ، إذ عمل الفرثيون بعد إستقرار حكمهم في العراق في عام ١٢٨ ق.م [٥٤] ، على تأسيس مدينة جديدة تقع بالقرب من مدينة سلوقية اليونانية ، من أجل أحتواء المدينة الاخيرة كما فعل اليونانيون مع بابل ، فكانت طيسفون العاصمة الشهيرة للفرثيين والساسانيين من بعدهم ، هي العاصمة الجديدة للبلاد ، والمركز السياسي الثاني في العالم القديم بعد مدينة روما ، اما حكم البلاد فقد أتخذ الطابع اللامركزي ، اذ شهدت البلاد حكم عدد من الاسر المحلية ، حكمت كل من الحضر وميسان و حدياب التي حكمتها سلالة يهودية .. الخ ، ونظرا لعدم تبني الدولة الجديدة لأي ديانة رسمية ، فقد أصبح للديانات المحلية دورها الكبير في المناطق التي تسود فيها ، ومن تلك الديانات : الديانة الرافدية التي ربما رافقها بعض المظاهر التعليمية ، لغرض ادامة هذه الديانة وبقاء تقاليدها ، ومما يبدو فإن الفرثيين حرصوا على رعاية هذه الديانة ، ولو في نطاق ما ، بدليل حصول تجديد لبعض المعابد مثل معبد الاله نابو في بورسيبا ، والاله اشور في مدينة اشور ، فضلا عن بناء معبد ضخم لعشتار في نفر ، لكن بابل ومعبدها أي- ساكلا ، لم يحظيا - على ما يبدو - بالعناية الكافية ،

---

[٥٣] . يقول المؤرخ بلني الكبير ، ج٦ ، ص٢٢٢ : " كانت مدينة بابل قد تخربت واستنزفت بسبب قربها من سلوقية التي بناها نيقاتور (سلوقس الاول) لهذا الغرض ، ثم يستمر ويقول : ان الفرثيين قاموا ببناء طيسفون قرب سلوقية لغرض استنزاف الاخيرة " اما بوسنياس فيقول : " اسس سلوقس على نهر دجلة مدينة سلوقية ووطن البابليين بصفة متآلفين هناك ، وقد حافظ على اسوار بابل ومعبد بيلوس سالما ، وسمح للكلدانيين بان يسكنوا حواليها " ينظر : مجموعة من الباحثين السوفيت ، العراق القديم ، ترجمة : سليم طه التكريتي ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص٤٨٧ .

[٥٤] . طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص٦٠٢ .

ولعل السبب لنشوب ثورة فيها قادها شخص اسمه حميروس سنة ١٢٧ ق.م [٥٥] ، ومن الأمور المميزة في هذا العصر ، بقاء بعض المظاهر الحضارية الرافدية ، منها : بقاء العبادة في عدد من المعابد ، وإستمرار التدوين في الخط المسماري ، وإستخدام اللغتين السومرية والاكدية ، ما يشير الى استمرار التحدث بهما ، على الرغم من إنتشار اللغة الارامية بلهجتها الشرقية القريبة من اللغة الاكدية ، وكذلك بقاء تقليد قراءة الطالع او الفأل التي كانت تمثل ركنا مهما من نسيج الديانة الرافدية ، فكانت الارصادات الفلكية تمارس باقصى درجات العلمية ، من اجل ضمان سلامة ورفاهية الافراد ، الا ان الامور لم تسر على الوتيرة نفسها في العقود التالية ، فقد حصلت تغيرات مهمة في مسار الحضارة العراقية القديمة ، من بينها : إنقراض استخدام الخط المسماري ، وتلاشى التحدث باللغة الاكدية ، فيما أخذ الديانة الرافدية بالانحسار بشكل تدريجي ، ولم يعد للكثير من الممارسات الدينية حضور مباشر في حياة الناس ، لكن على الرغم من هذه التغيرات المهمة ، بقيت الحضارة العراقية القديمة محافظة على مضمونها في نطاق بعض الطقوس والشعائر والعادات والتقاليد ، أما الأفكار والمعتقدات فقد استوت في طبقة اللا شعور و العقل الباطن .

أما أسباب أندثار الديانة العراقية القديمة فأهمها ما يأتي :

١. إنحسار إهتمام الملوك بهذه الديانة ، وتراجع شعبيتها في الوسط الاجتماعي ، بفعل الاختلاط السكاني في المدن ، فضلا عما اصاب تلك المدن من اندثار وخراب بفعل الاهمال أو لأسباب وعوامل اخرى .
٢. جمود هذه الديانة وعدم قدرتها على مواكبة التغيرات الحضارية والاجتماعية والسياسية للبلاد .
٣. ظهور النظام العشائري [٥٦] ، لاسيما في منطقة البطائح شبه المستقلة ، التي تشكل مساحتها ثلثي مساحة جنوب العراق تقريبا ، ما أضعف من حضور الدين

---

[٥٥] . المصدر نفسه ، ص٦٠٧ ـ ٦٠٨
[٥٦] . ما يدل على ظهور النظام العشائري في هذه المدة ، نشوء بعض الكيانات السياسية الصغيرة سواء في داخل البطائح او حولها ، ومن ضمن ذلك دولة ميسان التي سبق الحديث عنها في

الرافدي ، وان لم يندثر نهائيا ، لإحتفاظ تلك العشائر بمحتوى ذلك الدين ، ويرجح ان يكون للدين الصابئي صلة ما بالديانة العراقية القديمة ، و الجدير بالذكر ان تحول سكان البطائح الى النظام العشائري ، جاء استجابة لانعدام الوجود الحكومي ، واشتداد التحديات الامنية والبيئية ، وتغلغل العشائر القادمة من الصحراء .

٤. ظهور الديانة المسيحية وانتشارها في بعض مناطق العراق ، ما أدى الى دخول جزء كبير من سكان العراق الموجودين خارج البطائح فيها ، ربما نكاية بالسلطة السياسية الساسانية الحامية للدين الزرادشتي ، إذ لم يجد هذا الدين أي رواج له في العراق ، لكره العراقيين للسلطة ، والذي اصبح بعد سقوط بابل تقليدا عراقيا متوارثا .

لكن ما يلاحظ ان انتشار المسيحية ، الذي بدأ منذ وقت مبكر في العراق ، لم يكن على درجة واحدة في جميع المناطق العراقية ، إذ بينما شهدت المناطق الشمالية إنتشارا واسعا لهذه الديانة كما هو الحال في مدينة اربيل عاصمة مملكة حدياب فضلا عن منطقة الفرات الأوسط ، جرى عكس ذلك في الجنوب ، إذ يبدو أن للديانة الرافدية أثرها في الحد من انتشار المسيحية في بعض المناطق الجنوبية ، على الرغم من أن موقف الدولة لم يكن سلبيا طوال المئة سنة الأولى التي أعقبت ظهورها ، ثم متذبذبا في القرنين التاليين ، إلا أن الأمر تغير بعد ذلك ، ويعزى ذلك لإصدار الامبراطور قسطنطين لإعلان ميلانو سنة ٣١٣ م ، الذي قضى بشرعية الديانة المسيحية في عموم أرجاء الامبراطورية [٥٧] ، ما جعل الفرس يعاملون معتنقيها في

الصفحات السابقة ، ومما له علاقة بهذا الامر عثور المنقبين في اثناء حفرياتهم في مدينة الوركاء على كتابة يونانية تعود لملك ارامي اسمه ادد ـ نادن ـ اخي . طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص٦٠٧ .

[٥٧] . يذكر رشيد الخيون : " لم يتعرض المسيحيون القاطنون في الامبراطورية الفارسية للاضطهاد العنيف طالما كانت الامبراطورية الرومانية تدين بالوثنية ولم يحصل ذلك الا بعد صدور اعلان ميلانو سنة ٣١٣ ميلادية من قبل الامبراطور قسطنطين " رشيد الخيون ، الأديان والمذاهب في العراق ، ص١٥٢ .

العراق كأعداء لهم ورعايا لخصومهم ، فمرت على المسيحية في العراق ظروفا قاسية ، إذ تعرض معتنقيها لكثير من المضايقات ، أبرزها : ما واجهه الجاثليق المسيحي العراقي (مار شمعون برصباعي) من مضـايقات وقف ازاءها بكل جلد وقوة ، قبل ان يفقد حياته في دورة من دورات العنف ضد المسيحيين سنة ٣٤١ ميلادية ، ثم وبنتيجة عوامل مختلفة ابرزها : تحسـن العلاقات السـاسانية البيزنطية ، او مجئ ملوك متسـامحين ، فضلا عن ظهور المذهب النسطوري كمذهب معارض للكنيسة الرسمية ، تغير الوضـع لصـالح حالة التسـامح ، وإن جرت بعض المضـايقات من حين لآخر [٥٨] ، ولعل مما يثير الغرابة في موقف السلطة من الأديان ، أن موقفها من بعض الاديان كان يختلف عن موقفها مع أديان أخرى ، وحتى هذا الامر كان يتغير من وقت لآخر ، وهذا ما قد يرتبط بالظروف التي تمر بها الدولة ، فضلا عن طبيعة علاقاتها الخارجية ، ومن أمثلة ذلك : الموقف من اليهود الذي غلب عليه التقلب ، وان بدى وديا غالبا [٥٩] ، فيما تعرض الصابئة لموجة من التضييق دفعت بعضهم للهرب الى حران [٦٠] ، وهناك انقسم الصابئة إلى كتابيون و وثنيون ، و الشيء نفسه حصل مع المانوية التي تنتسب لنبيها (ماني) المولود في العراق ، الذي تمكن في البداية من نشر ديانته دون أي مضايقة من السلطة ، لكنه تعرض بعد ذلك لتنكيلها الذي أدى إلى موته [٦١] ، و قد نشأت المانوية بتأثير من الزرادشتية

---

[٥٨] . رشيد الخيون ، الأديان والمذاهب في العراق ، ص١٥٥ .

[٥٩] . رشيد الخيون ، المصدر نفسه ، ص١٢١ .

[٦٠] . قدم الى حران موجة كثيفة من المندائيين الفارين من الاضطهاد للتوطن في حران ابتداء من القرن الثاني للميلاد وعلى هذا النحو اختلط الصابئيون الكتابيون بالصابئين الوثنيين . جورج طرابيشي . العقل المستقيل ، ص١٠٦ .

[٦١] . سليم مطر ، الذات الجريحة : أشكالات الهوية في العراق والعالم العربي (الشرق متوسطي) (١٩٩٦) ، ص٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
ومما يدل على عراقية ماني العبارات المنسوبة اليه والتي يقول فيها : " ان الحكمة والمناقب لم يزل ياتي بها رسل الله بين زمن واخر فكان مجيئها في زمن على يد الرسول بوذا الى بلاد الهند وفي زمن اخر على يد زرادشت الى ارض فارس وفي زمن على يد عيسى الى ارض المغرب ثم نزل الوحي وجاءت النبوة في هذا الزمن الاخير على يدي انا ماني رسول اله الحق الى ارض بابل " المصدر نفسه ، ص٢٥٣ .

والمسيحية ، إذ تنص اطروحتها على ان في الكون قوتان : النور والظلمة ، النور يخلق الاشياء الشفافة مثل : الروح والعقل والضياء الخ ، والظلمة تخلق الاشياء المجسمة من ارض ونبات واجساد الخ ، وعلى الانسان إذا اراد الخير والخلود في حدائق النور ، ان يحتقر جسده وجميع الماديات ، حد تفضيل الموت على الحياة ، من اجل تخليص الروح والنور من سجن الجسد والظلام ، لان الروح تتعذب ـ كما يقول ماني ـ على الجسد ، صليب الظلام ، كما تعذب عيسى الزاهي على صليبه [٦٢] ، أما تأثير المانوية فقد بلغ حدا كبيرا زمانيا ومكانيا ، فمن ناحية الزمان ، بقي تأثير المانوية ماثلا الى قرون عدة تالية ، فيما بلغ تأثيرها المكاني أقطارا عدة ، من اسبانيا في الغرب إلى الصين في الشرق ، وهي على الأرجح الديانة الشرق أدنوية الأولى ، التي بلغت هذه الأرجاء في وقت قياسي ، لقد اعترف اليونانيين بعجز حضارتهم عن إختراق الشرق ، إذ بين طيطوس ليفيوي : " ان المقدونيين الذين انشأوا الاسكندرية في مصر والذين يملكون سلوقية وبابل ومستوطنات متفرقة في العالم قد انحطوا ! الى سوريين وفرثيين ومصريين " [٦٣] ، أي هو يعترف بعجز الثقافة اليونانية عن فرض نسقها على الشعوب التي خضعت لسلطانها السياسي ، لكن على الرغم من ذلك ، لم تكن الحضارة العراقية القديمة في أفضل حالاتها آنذاك ، ليس بسبب فقدانها لجذوة الأبداع فحسب ، بل وتحولها نحو الانهيار التدريجي .

---

[٦٢] . المصدر نفسه ، ص٢٥٤

[٦٣] . جورج طرابيشي . نظرية العقل ، ص١٣١ . نقلا عن : طيطوس ليفيوس ، التاريخ الروماني ، (باريس ١٩٨٢) .

الفصل الرابع

مرحلة التكوين

أدى الفتح العربي الإسلامي للعراق عام ٦٣٧ م ، إلى حصول نتيجتين مهمتين : الأولى - دخول موجة جزرية كبيرة إلى البلد ، تمثلت هذه المرة بالعنصر العربي ، والثانية دخول ديانة توحيدية جديدة هي الديانة الإسلامية [٦٤]، إذ أدت هاتان النتيجتان إلى حصول إحتكاك وصراع أخذ أشكالا مختلفة بين العرب وسكان البلاد الأصليين ، لا سيما بعد اتجاه السلطة العربية الإسلامية إلى إخضاع البلدان المفتوحة لسيطرتها الأقتصادية ، إذ خلقت الفتوحات العربية الاسلامية شعورا لدى بعض العرب بإنهم شعب الله المدلل ، وإن البلاد الاسلامية بما فيها من موارد هي فيء أفاءه الله عليهم ، حتى قيل عن السواد بإنه بستان قريش [٦٥] ، الامر الذي خلق نوعا من النزاع ما بين العرب والسكان الأصليين ، ولأن السكان الأصليين لم يكن بمقدورهم مواجهة الإجراءات الإقتصادية التي أتخذتها السلطة العربية الإسلامية فيما يخص تمليك الأراضي للعرب ، واستغلال الفلاحين من السكان الأصليين ، والتمييز في العطاء بين العرب والموالي ، فقد أخذوا يبحثون عن حليف من داخل الوسط العربي الإسلامي ، يساندهم في إستعادة ما سلب من حقوقهم ، وقد وجدوا ضالتهم في عدد من الصحابة الذين أعلنوا معارضتهم لما أتخذته السلطة من إجراءات اقتصادية وإدارية ، ومساندتهم لمطالب السكان الأصليين في المساواة وإستعادة أراضيهم الزراعية ، إذ لم تقتصر هذه المطالبة على سكان العراق ، بل شملت أيضا السكان

---

[٦٤] . حول الأحداث التي تخص التاريخ الأسلامي الواردة في الكتاب يمكن متابعتها في أكثر من مصدر منها : محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ؛ عز الدين بن الأثير ، الكامل في التاريخ ؛ عماد الدين أبي الفدا ، البداية والنهاية ؛ شمس الدين الذهبي ، تاريخ الأسلام ؛ أحمد بن يحيى البلاذري ، فتوح البلدان ، أبن أعثم الكوفي ، الفتوح .

[٦٥] . هذه مقولة لاحد ولاة الامويين وحدث من خلالها سجال بينه وبين نفر من القبائل العربية الاخرى وكان موضع السجال هل السواد فيء لقريش ام لكل القبائل العربية الاخرى ؟ ينظر : علي الوردي ، طبيعة المجتمع العراقي ، ص٩٣ .

الأصليين للبلدان الأخرى ، إلا أن الظروف والأحوال لم تكن متشابهة بين هذه البلدان ، فقد كانت الإجراءات الإقتصادية أكثر شدة في العراق ومصر لكونهما بلدين زراعيين ، الأمر الذي أدى إلى شيوع منطق المواجهة من قبل سكانهما وغالبيتهما من الفلاحين ، على الضد من البلدان الأخرى التي شاع فيها موقف المهادنة و المعارضة السلمية ، أما أهم أشكال المواجهة فهي كالآتي :

١- الصراع العسكري

أدى التحالف بين قوى المقاومة للسكان الأصليين والمعارضة من الجانب العربي الإسلامي ، إلى إتخاذ خطوة جديدة تمثلت بالمواجهة المباشرة مع السلطة ، فكانت احداث عام ٦٥٥ م من نتاج هذا التحالف [٦٦]، ولم يكن هدف التحرك إستهداف الخليفة نفسه ، إنما تحسين معاملة السكان الأصليين وضمان حقوقهم ، الأمر الذي اقتنع به الخليفة ، إلا أن القوى المتنفذة والمستفيدة ، وجدت في رضوخ الخليفة لمطالب المعارضة خطرا على مكاسبها ومصالحها فعمدت على تصعيد الأمور ، الذي كانت نتيجته مصرع الخليفة [٦٧]، و إنتقال الخلافة الى الإمام علي بن ابي طالب الذي جرى تحت ضغط الثوار أنفسهم ، فما كان من الخليفة إلا أن إتخذ على الفور جملة من الاجراءات أهمها : عزل الولاة الذين طالب الناس بإقالتهم ، واعلانه مساواة العرب مع غير العرب في العطاء [٦٨]، ما أدى إلى أنتهاء الأزمة وعودة المياه

---

[٦٦] . بحسب الروايات شارك في التحرك ضد عثمان ٢٠٠ رجل من أهل الكوفة يقودهم مالك بن الحارث النخعي و ١٠٠ من أهل البصرة يقودهم حكيم بن جبلة العبدي و ٦٠٠ من أهل مصر يقودهم عبد الرحمن بن عديس البلوي ، ينظر : البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٢ ، ص ٢٠٩ ؛ أبن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج١ ، ص ٣٧ – ٣٩ .

[٦٧] . أبن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٧٧ – ١٨٠ .

[٦٨] . ذكر أبن أبي الحديد أن علي بن أبي طالب خطب في اليوم الثاني من توليه الخلافة خطبة قال فيها : " ... أنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسويّة، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً وما عند الله خير للأبرار " ابن أبي الحديد ، عبد الحميد ، شرح نهج البلاغة ، ج٧ ، (بيروت ، ١٩٨٧) ، ص٣٧ .

إلى مجاريها ، لكن الأمر تغير في العصر الأموي الذي جاء على أثر الصلح الذي عقد في عام ٤١ هـ / ٦٦١ ميلادية بين معاوية بن ابي سفيان والحسن بن علي بن ابي طالب ، إذ عادت السلطة إلى فرض ضرائب جديدة على السكان الأصليين ، واستحقارهم ، مع محاولة إثارة الفرقة بينهم وبين العرب من ساكني العراق ، ما دفع الناس لاسيما اولئك الذين يحنون لعهد علي الى مراسلة أبنه الحسين ، ومطالبته بالتحرك لإنقاذهم ، لكن الأخير انتظر لحين وفاة معاوية ، حتى لا يتعارض مع صلح اخيه الحسن ، ومن ثم لبى النداء ، بعد ان خان خصومه عهدهم ، وتصرفوا بما يناقض بنوده ، إنسجاما مع مبدأ المصلحة ، فكانت واقعة الطف بكل ما حملته من دروس ونتائج (وقعت المعركة سنة ٦٨٠ ميلادية) [٦٩]، إذ خلفت هذه الواقعة جرحا غائرا في الوجدان العراقي ، ليس بسبب دموية وقسوة الواقعة فحسب ، بل و لأنها مست لاشعورهم المكبوت ، وأحيت الى حد ما تأريخهم الملئ بالأحزان ، وربما نتيجة لذلك ، تقربوا الى الاسلام أكثر ، بعد ان وجدوا في الواقعة ، الوسيلة التي تمكنهم من مد الجسور بين تراثهم المطمور في لاشعورهم وتعاليم الاسلام .

لقد أستحضر العقل العراقي ومن خلال طبقة اللاشعور ، نموذج تموز | دموزي القديم ، رابطا صورته مع صورة الثائر الاسلامي المواجه للظلم ، مثلما مثل تموز صفة الخصب والحياة بإزاء صفة الموت والفناء ، فيما تشابهت الطقوس والشعائر التموزية مع الطقوس و الشعائر الحسينية ، لإنطلاقها من خلفية ثقافية واحدة ، ومثلما كان العراقيون القدماء يحتفلون لإثنا عشر يوما بمناسبتي عودة تموز الى الحياة وبداية السنة البابلية (الأكيتو) ، بتمثيل بعض المشاهد الدينية ، و تلاوة قصة الخليقة البابلية ، وإقامة الولائم محاكاة لفرح عشتار (الزهرة) ، يحيي العراقيون المعاصرون في رأس السنة الهجرية ، مأساة الحسين ، ويستذكرون تضحيته ومعاناته في مراسم

---

[٦٩] . بخصوص احداث معركة الطف يمكن الاعتماد على اكثر من مصدر منها ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ؛ أبن أعثم الكوفي ، الفتوح ؛ أبن الأثير ، الكامل في التاريخ .

تستمر لعشرة أيام ، يتخللها تمثيل مشهد مصرع الحسين ، وتلاوة مقتله مع أبيات العزاء ، فضلا عن إقامة الولائم استذكارا لذكرى فاطمة بنت الرسول .

ومما يلاحظ أن تفاعل الناس مع الواقعة حصل بعد مدة قصيرة من وصول السبايا الى الكوفة ، إذ تذكر المصادر التاريخية إن أهلها (أي الكوفة) استقبلوا السبايا بالبكاء والعويل ، لكن الحدث الأهم هو في ظهور حركة التوابين التي ضمت جماعة من السكان الأصليين والعرب ، وإندفاعها للمواجهة بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجده الفزاري ، فضلا عن العديد من الحركات التي حملت شعار الثأر للحسين والقصاص من قتلته ، إلا أن موقف الناس لم يكن ثابتا ، إذ كان يعوزه الاصرار والمثابرة ، الامر الذي افشل كثيرا من الحركات كما في حركة المختار بن ابو عبيدة الثقفي ، الذي انفض الناس عنه في وقت كان أحوج فيه إليهم ، فوقع بين نارين : تقاعس اتباعه من الموالي ، وغدر اعوانه من القبائل العربية ، الذين نقموا عليه تقريبه للموالي ، ومما يعرض نقمة القبائل العربية على المختار ، كلام شبث بن ربعي معه بعد أن ارسله زعماء القبائل العربية لمفاوضته المختار ، إذ قال له : " ايها الامير اعظم الاشياء عليك انك عمدت الى عبيدنا وهم فيئنا الذين افاء الله بهم فاخذتهم اليك ، ثم لم ترضى باخذهم حتى جعلتهم شركائنا في فيئنا ، ولا يحل لك ايها الامير هذا في دينك ولا يجمل بك في شرفك "[٧٠] ، ويبدو ان نقمة هؤلاء كانت كبيرة ، فقد رفضوا عرض المختار تنفيذ مطاليبهم مقابل اخلاصهم له في الحرب ، ثم وجدنا احدهم وهو عبد الرحمن بن مخنف يؤملهم بالخلاص من خلال مصعب بن الزبير او عبد الملك بن مروان ، ما يدل على نقمتهم الكبيرة عليه [٧١] ، ورب قائل يقول ان هذه الحركات ليس مصدرها العراقيون الأصليون بل العرب ، بدليل الاسماء التي يذكرها التاريخ كقادة لهذه الحركات او أصحاب أدوار بارزة فيها ، والجواب ان الامر ليس كذلك ، لانه لو كانت هذه الحركات من العرب وحدهم ، لحصلت في

---

[٧٠] . ينظر : احمد بن اعثم الكوفي ، الفتوح ، تحقيق : سهيل زكار ، (بيروت) ، ص٢٦٦- ٢٦٧

[٧١] . المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ – ٢٦٧ .

مناطق اخرى يقطنها العرب ، أما وقد حصلت في مناطق غالبية سكانها من السكان الأصليين ، فهذا مما يرجح أن يكون لهؤلاء دور كبير فيها ، أما عدم بروز شخصيات من السكان الاصليين في هذه الحركات ، فيرتبط بإكتفائهم بالعمل التحريضي والدعائي ، فضلا عن علاقة ذلك بتعصب بعض المؤرخين ضدهم .

٢- الصراع الفكري

لم يكن موقف السكان الاصليين من الأوضاع في البلدان المفتوحة على شكل واحد ، فهناك تيار اراد مسايرة العرب ، من اجل كسب بعض المنافع ، إذ أدى اتباع هذا التيار دورا كبيرا في مسار الحضارة العربية الاسلامية ، ولعل نشوء علوم الفقه والتاريخ و النحو العربي ، بشقيه الكوفي والبصري ، فضلا عن العلوم والمعارف الاخرى ، قد جرى برغبة من هؤلاء في خلق واقع اكثر تساهلا ، والحصول على امتنان السلطة وحمايتها ، لاسيما وان هذه العلوم تمس واقع العرب وحياتهم ، اما التيار الثاني ، فقد نادى بالمواجهة ، بعد أن وجد في سياسة الحكام العرب احتقارا لحقوق الشعوب الاصلية ، ما جعلها تنتفض على ذلك ، وتنهض من رقادها ، ولم تكن نزعة المواجهة قاصرة على العراق ، إلا أنها في العراق حملت سمات وخصائص مختلفة عن سواه ، ولعل ذلك بسبب وجود نخبة اقتصادية وثقافية متنفذة من السكان الاصليين آنذاك ، ما جعله يمثل حاضنا كبيرا لمختلف الحركات والنزعات الفكرية والسياسية التي رأت أن الإسلام نفسه لا يخالف أهدافها ورؤاها ، أنما يصح ذلك فقط على التفسير الخاطئ له من قبل المستغلين والمتسلطين من الجماعة المسيطرة ، وبما ان الفتوحات العربية الإسلامية هي فتوحات عسكرية بالدرجة الاولى ، فإنها لم تعرض صفتها العقائدية الا بعد حين ، ولعل إلغاء السلطة ذاتها للحافز الذي وضع للداخلين في الاسلام ، أي إعفائهم من الجزية ، هو تأكيدا على ما للفتوحات في نظر بعض المشاركين فيها من دافع اقتصادي ، ما دفع كثيرا

من ابناء البلاد المفتوحة الى التمسك بدياناتهم القديمة ، والإمتناع عن الدخول في الاسلام ، إلى أن ألغي القرار في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز [٧٢] و العباسيين من بعده ، ولأن نصوص وتعاليم الاسلام كانت في معظمها غير مدونة ، فقد اصبحت هناك الكثير من التأويلات والقراءات المختلفة للاسلام ، أما الرد الثقافي فقد تمظهر بمحاولة السكان الأصليين إبراز أرثهم القديم ، ليباهلوا به العرب و ليكون حصنا يلوذون به ضد كل من يروم النيل منهم ومن حضارتهم ، فظهر من هؤلاء تياران : احدهما معتدل يكتفي بالتمسك بعاداته وتقاليده وقيمة ، والآخر متطرف يحاول المباهلة بها والطعن بوجود الأرث الذي يمتلكه العرب ، ما ولد احتقانا شديدا ، نتجت عنه كثيرا من العداوة والبغضاء ، على الرغم من ظهور فئة توفيقية ، هي فئة العقليين واصحاب الوسطية ، فهؤلاء لم يروا في العرب خصوما لهم بل مددا بإعتبارهم من العنصر نفسه الذي ينتمون إليه ، وربما ادركوا ان مساحة الحرية التي يوفرها العرب تكفي للتعبير عن وجودهم ، وتجعلهم أكثر تأثيرا مما كانوا عليه في الأزمان السابقة ، ولعل هذا التيار قد اخذ ينشط بعد ان اخذ الناس يفهمون الحكم الاموي المتعصب للعرب على انه شكل طارئ لا علاقة له بالسياق العقائدي للإسلام ، ولذلك أخذت التنظيمات الثورية للسكان الاصليين تتعبأ ضمن إطار التيار الوسطي ، وتتحالف مع العرب المناهضين للحكم الأموي ، وعلى رأسهم الهاشميين ، رافعين شعار الرضا من آل محمد ، الاكثر شرعية ومقبولية آنذاك ، لكن الامر لم يقتصر على التصدي العسكري ، بل ظهرت تيارات فكرية كان لها موقف حاسم من هذا الامر ، إذ تنوعت هذه التيارات تبعا لإختلاف مناهجها وأهواء اصحابها ، ومن الضروري ادراك ان المؤرخين المتأخرين قد وضعوا جملة هذه التيارات ضمن تيار الشيعة ، منطلقين في ذلك من من تناقضها مع المذاهب التي ينتمون إليه ، وهذا

---

[٧٢] . أرسل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز إلى ولاته أمرا قال فيه : " من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا وأختتن فلا تأخذوا منه الجزية " ، ابو عبيد القاسم بن سلام ، الأموال ، تحقيق : خليل محمد هراس ، (بيروت) ، ص ٦١ .

يصح فيما إذا عنوا بالتشيع مبدأ المعارضة للحكم الأموي ، أما إذا عنوا تيارا بعينه ، فهذا مما يتنافى مع التطور التاريخي لمفهوم التشيع .

٣- الصراع السياسي

اختلفت معارضة السكان الأصليين للبلدان المفتوحة ، تبعا للظروف التي يعيشونها في ظل الحكم الجديد ، ففي حين رفع بعضهم لواء المقاومة ، أعتمد بعضهم الآخر خيار المعارضة السلمية ، وهو ما انعكس أيضا على موقف العرب منهم ، ففي حين رأى بعضهم ضرورة أن يتم مساواتهم بالعرب ، رأى بعضهم الآخر أن الوقت لم يحن بعد لتحقيق ذلك ، بسبب الحاجة لجهود المقاتلين من القبائل العربية في الجهاد والسيطرة على البلدان المفتوحة ، ومن بين هؤلاء المتشددين الذين لا يقبلون بالمساواة ، لأن الشعوب الأخرى في نظرهم ليسوا سوى عبيد وأتباع ، وقد توحدت جهود تيار المقاومة للسكان الأصليين مع جهود المطالبين بالمساواة من الصحابة في أثناء أحداث عام ٦٥٥ م ، وبعد مصرع الإمام علي بن أبي طالب وصلح ابنه الحسن مع معاوية ، تشكلت ثلاثة تيارات : تيار المقاومة الذي تتبناه فئة من السكان الأصليين ، وأغلبهم من أهل العراق ، وتيار المعارضة السلمية الذي تتبناه فئة أخرى منهم ، لا سيما أهل الشام ومصر ، فضلا عن التيار الممثل للعرب ، إذ تمكن تيار المعارضة السلمية من تمتين بناءه الفكري والعقائدي ، بالإستعانة بالقوانين البيزنطية ، وهو ما لم يتهيأ لتيار المقاومة الذي أنشغل عن ذلك بجهوده العسكرية ، ما جعله يموج بالإجتهادات والأهواء المختلفة التي أضعفت بناه الفكرية ، وسمحت بنشوء تيارات صغيرة منشقة عنه ، رفعت راية المعارضة ضد الأمويين ، الأمر الذي سهل على الأمويين من القضاء عليها بكل يسر ، إلى أن ظهرت الحركة التي توجت بوصول العباسيين إلى السلطة ، والتي قادها رموز سريون ، إذ أنها لم تكن ذات ادارة عباسية منذ البداية ، فيما يرجح أن جذورها كانت قائمة بدون أي ارتباط مباشر مع العباسيين او العلويين ، فهي معبأة تحت شعار الرضا من آل محمد ، وهو شعار

يمكنه ان يضمن وصول السلطة إلى الجهات المتعاطفة مع الموالي والضعفاء ، في الوقت ذاته الذي يطمئن الجهات الأخرى بأن الحركة ليست ضد الإسلام أو العرب ، بل أن هدفها الوحيد نقل السلطة من أسرة عربية إلى أخرى [٧٣] ، ولعل مما يشير الى دور الضعفاء من العرب والسكان الاصليين في هذه الحركة ، ما ذكره ابو العباس السفاح في إحدى خطبه الى ان انتصارهم سيكون نصرا للذين استضعفوا في الارض ، و إشادته بأهل الكوفة و ما عانوه من الأمويين وظلمهم ، وتكريمهم بجعل مدينتهم عاصمة للدولة بدل دمشق عاصمة الأمويين [٧٤]، إلا أن هذه الحركة انقسمت منذ وقت مبكر إلى تيارين : تيار موال للعباسيين ، وتيار موال للعلويين ، ويبدو من الروايات ، أن الفرع الحسيني من البيت العلوي ، لم يكن في حالة عداء سافر مع الأسرة العباسية ، ربما لإسهام هذه الأسرة في الإقتصاص من قتلة جدهم الحسين بن علي ، أما الفرع الحسني فكان على الضد من ذلك ، إذ يرى في العباسيين مغتصبين للخلافة التي كانت من حصة جدهم الحسن قبل أن يسلبها الأمويين منه ، ولذلك كثرت الحركات والثورات التي اشعلها اقطاب الفرع الحسني ضد العباسيين ، حتى شملت أماكن مختلفة من الدولة ، أما اقطاب الفرع الحسيني ، فمالوا تارة إلى محالفة العباسيين وتارة أخرى إلى معارضتهم ولكن بالوسائل السلمية [٧٥]، بإستذكار تضحية جدهم الحسين ، والتبحر في الأمور الفقهية والعقائدية ، والتبشير بالمخلص الذي سيظهر من ذريتهم في آخر الزمان لينشر العدل والمساواة بين الناس ، وهو أمر لم يجده العباسيون خطرا عليهم ، الأمر الذي دفع الكثرة الكاثرة من الضعفاء والموالي

---

[٧٣] . تذكر هذه الروايه : ان ابو سلمه الخلال عندما سلمت اليه مقاليد الامور اثر دخول العباسيين الكوفه ، اراد نقل الخلافه الى العلويين فأرسل ثلاثه رسائل طلب من ناقلها ان يسلم الرساله الاولى الى جعفر الصادق فإن قبل أحرق الأخريين وأن رفض تسلم الرساله الثانيه الى عبدالله المحض الذي قبل رساله الخلال لكن الصادق حذره منها لعدم وجود علاقه سابقه تربطه بهذه الحركه ، وكذا الحال بالنسبه للثالث عمر بن علي بن الحسين . ينظر : مجموعه مؤلفين ، تاريخ الدوله العربيه الاسلاميه في العصر العباسي ، (الموصل ، ١٩٨٨) ، ص ٢١

[٧٤] . أبن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٠ ، ص ٣٩ – ٤١ .

[٧٥] . ينظر : البطاينة ، محمد ضيف الله ، دراسات في التاريخ الاسلامي : العلاقات بين العلويين والعباسيين في العصر العباسي الاول ، (أطروحة دكتوراه) ، (كلية الآداب – جامعة اليرموك – الأردن ، ١٩٨٠) .

إلى الإنضواء تحت لوائهم ، ونظرا لفقدان العباسيين لقاعدتهم الشعبية ، فقد اخذوا جانب الوسطية التي مثلها فكر الإعتزال ، ويبدو ان العلويين من الفرع الحسيني ، قد مالوا إلى ذلك أيضا ، بعد تقارب الخليفة المأمون مع علي الرضا الذي أصبح وليا لعهد المأمون ، ما دفع التيارات الأخرى ، وبشكل خاص التيارين العلوي الحسني والتيار الممثل للعرب ، إلى تشديد معارضتهم ضد هذا الإتجاه ، ومن ثم القضاء عليه بعد ان انفصم عرى التحالف بين العباسيين والعلويين من الفرع الحسيني .

٤ـ الصراع الفقهي

بعد ظهور التيارات الثلاث : الأول ـ الممثل لأهل العراق ، والثاني ـ الممثل لأهل الشام ومصر ، والثالث ـ الممثل للعرب ، بدأت عملية ترصين المباني الفقهية لهذه التيارات ، التي توجت بظهور فقه الإمام ابو حنيفة النعمان ، الممثل للتيار الأول ، ويمكننا إدراك ذلك من خلال نظرتنا إلى فقه هذا الإمام البعيد عن التعقيد ، فموقف هذا الإمام من الاحكام الدينية ، إتسم بقدر عال من المرونة ، مقدما الرأي على السنة (أقوال الرسول وأفعاله وأقراراته) ، ما عد بمثابة المؤسس الحقيقي لمدرسة الرأي الفقهية ، التي تواصلت بعده على يد تلامذته المعروفين وأبرزهم : محمد بن الحسن الشيباني و ابو يوسف القاضي و وزفر بن الهذيل وغيرهم ، وأهم ما ينسب لهذا المذهب : استنباطه للحيل الشرعية ، التي تستخدم عادة للتخلص من بعض المواقف الشرعية المحرجة ، الأمر الذي سمح بإنتشار هذا المذهب بين أوساط العامة ، فيما أصبح مدار اهتمام الخلفاء ابتداءا من المنصور العباسي ، على الرغم من ان الأخير كان هو الذي أمر بقتل أبي حنيفة النعمان عن طريق السم [٧٦] ، لكن هذا لم يمنع خلفاء الدولة التاليين الى تقريب تلامذة النعمان ، واعطائهم كرسي القضاء ، الذي بقي تحت ادارتهم معظم عهود حكم الدولة العباسية ، والغريب انه على الرغم من ان المذهب الفقهي الحنفي من ابداع رجل منسوب الى التيار الأول الممثل لأهل العراق

---

[٧٦] . بخصوص مادة ابي حنيفة النعمان ومذهبه اعتمدنا على كتاب رشيد الخيون : الأديان والمذاهب في العراق ، ص٣٢٩ .

، الا انه غدا بعد قرون عدة جزءا من مجموعة المذاهب المنسوبة للتيارات الأخرى ، و هذا الأمر لم يترسخ بشكله المعروف حاليا الا في خضم الصراع العثماني-الصفوي للسيطرة على العالم الاسلامي وتبني كل طرف منهم لمذهب من المذاهب ، فكان التبني العثماني للمذهب الحنفي هو السبب الاساس لعده من المذاهب ذات التوجه المغاير لتيار أهل العراق وليس العكس ، أما التيار الثاني الممثل لأهل الشام و مصر ، فقد أنتج فقه الإمام مالك بن أنس ، الذي قدم النص على الرأي ، معتبرا الحديث أحد الركائز الأساسية للفقه الديني ، تلاه الإمام محمد بن ادريس الشافعي [٧٧]، الذي حاول التوفيق بين مذهب الحديث والرأي ، وهو شبيه بما قام به المأمون عندما تبني النزعة الإعتزالية للفصل ما بين الموالين لتيار أهل العراق والموالين لتيار أهل الشام ومصر ، الأمر الذي جعله في حالة عداء مع التيارين اللذان أسهما في إسقاطه في النهاية ، فيما تزعم المعارضة للإعتزال من التيار العربي ، الإمام البغدادي احمد بن حنبل [٧٨]، الامر الذي تسبب في النهاية ، فضلا عن جملة من العوامل الاخرى ، في انهيار ذلك التيار العقلي العظيم .

العقل العراقي : جدل التكوين وتمظهراته

يلاحظ على الحركة العقلية أمرين مهمين ، الأول :- انها بدأت منذ المراحل الاولى للفتوحات الاسلامية ، والثاني :- كثرة الفرق الفكرية التي انطلقت من معين هذه الحركة ، الأمر الذي يدفعنا للتساؤل عن سبب ذلك ، هل للامر علاقة ببنية الاسلام ام ببنية الموروث الذي سبقه في الاصقاع التي وصلها ؟ وللاجابة نقول : ان للامر علاقة بالأمرين معا ، اذ لو كانت بنية الاسلام او تعاليمه لا يسمحان بذلك ، لما ظهرت مثل هذه الحركة الفكرية القوية ، ولما تكاثرت الفرق الفكرية والدينية الى هذا

---

٧٧ . لمزيد من المعلومات عن المذهب الشافعي ، ينظر : رشيد الخيون ، الاديان والمذاهب في العراق ، ص٣٥١- ٣٨٤ .

٧٨ . لمزيد من المعلومات عن هذا المذهب ، ينظر : المصدر نفسه ، ص٣٨٥ - ٤١٥ .

الكم ، اما علاقة ذلك بالموروث الذي سبق الاسلام ، فهو أمر يبرزه أحتواء تلك الفرق على مضامين لها صلة به ، والملاحظ أن ظهور معظم هذه الفرق جرى في منطقة جغرافية معينة ، وهي تلك المنطقة التي كانت خاضعة للحكم الساساني ، أما المنطقة التي كانت خاضعة للحكم البيزنطي ، فلم تشهد ظهور مثل هذه الفرق ، بل بدت الأمور فيها وكأنها مستتبة لصالح الفكر الجديد [٧٩] ، الأمر الذي قد يعزى لكون المنطقة الأولى كانت تمثل مركز الحكم الساساني ، فيما كانت المناطق المفتوحة في الغرب ، مجرد ولايات تابعة للدولة البيزنطية ، فضلا عن إختلاف الخلفية الإجتماعية والاقتصادية والدينية للمنطقتين ، ومع أن كثير من هذه الفرق نشأت في العراق ، الا ان هناك من حاول نفي صلة هذه الحركات او الفرق بالتربة العراقية ، وإحالتها الى العنصر الايراني ، لكونه العنصر المسيطر قبل الفتح العربي الإسلامي ، وفي هذا مغالطة كبيرة ، إذ أن خضوع العراق للحكم الساساني ، لا يعني إصطباغه بالصبغة الإيرانية ، وتخلي مواطنيه عن أصولهم وجذورهم القديمة ، فعلى الرغم من إمتلاكهم السلطة السياسية ، بقي الإيرانيون مدينون بحضارتهم للجذور العراقية الممثلة بحضارة بلاد الرافدين ، يقول المفكر الايراني علي شريعتي : " كانت حضارتنا القديمة واحدة من اكثر حضارات البشر عالمية وتقدما ، فهي وريثة حضارات ما بين النهرين " السومرية ، الاكدية ، البابلية ، الاشورية " ، والمنافسة المهاجمة للحضارات اليونانية والرومانية ، وفي النهاية مانحة مواد كثيرة في بناء الحضارات الاسلامية والاوربية " [٨٠] .

---

[٧٩] . يبدو ان الجابري في كتابه (تكوين العقل العربي) قد اهتدى فعلا لاشكالية الواقع الفكري الاسلامي انذاك ، واستطاع ان يشخص بنجاح لا غبار عليه السبب الذي جعل مشرق العالم الاسلامي يموج بالتيارات والعقائد ذات الشكل الاسلامي والمحتوى القديم ، مبينا ان هذه المنطقة الاسلامية مازالت تنبض بعقليتها القديمة عكس الجانب الغربي الذي ربما كان سهل القياد بفعل انحسار ظل موروثاتها القديمة ، لكنه لم يكن حياديا بما يكفي ليطرح القضية بمعيار الضرورة ، عادا ما حصل وكأنه نوع من أنواع الانحراف أو هو عمل اساء كثيرا الى العقل ، وكأن من العقل ان تستسلم وتخضع لجبروت الآخرين وليس ان تنتج فقهك الذي يتطابق مع حاجات واقعك أو الظروف التي تمر بها ، محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، (بيروت ١٩٨٤) .

[٨٠] . علي شريعتي ، العودة الى الذات ، ترجمة ابراهيم الدسوقي شتا ،(قم ، ٢٠٠٢) ، ص٣٨٤ .

وبمعايننتا لتأريخ الفرق الفكرية الإسلامية ، نلاحظ مواكبتها للمراحل الاولى للفتح العربي الإسلامي ، بدليل ظهور الرفض و التذمر للتمييز ما بين العرب والشعوب الأخرى ، ما يدعونا إلى التساؤل عن السبب في ظهور هذه المعارضة في هذا الوقت بالذات ، وهو الوقت الذي كان العرب فيه في عز قوتهم وذروة سلطانهم ، لا سيما وان المبدأ المعروف في توزيع المكاسب ، يعطي الأفضلية دائما للغالب لا للمغلوب ، للإجابة نقول أن الفتح العربي الإسلامي لم يكن مجرد غزو عسكري حتى يشيع فيه هذا المبدأ ، إنما جاء حاملا لدين جديد يدعو للعدالة والمساواة ، ومن ثم فقد ارتبطت هذه المطالبة بالمبادئ التي دعى إليها هذا الدين ، مستعينة بها على المبدأ الجاهلي المرتبط بحق الغزو أو الفتح ، ولعل أبرز ما يؤشر في هذه المرحلة ، استفحال ظاهرة المعارضة حتى ضمن الرعيل الاول من الصحابة فضلا عما جاء بعدهم ، إذ انقسم المسلمون انذاك بين ثلاث تيارات :

١- تيار يرى انه الحق وما عداه باطل ، وقد تمثل هذا التيار بطرفي النزاع الرئيسيين علي بن ابي طالب و تيار أهل العراق ومعاوية بن ابي سفيان وتيار أهل الشام ومصر .

٢- تيار رأى أن كل من طرفي النزاع كانا على باطل وقد تمثل هذا التيار بفرقتين هما :

١- الحرورية : وهي فرقة انفصلت عن جيش الامام علي بن ابي طالب بعد عودته من صفين ، سمو بهذا الاسم نسبة لقرية حروراء قرب الكوفة ، تزعمهم عبد الله بن وهب الراسي ، معلنين رفض التحكيم ، منادين ان الفصل بشأن الخلافة لا يصح ان يوكل الى البشر ، ثم رفعوا شعار الخوارج المعروف (لا حكم الا لله) [٨١]

٢- الخوارج : وهي فرقة ظهرت اثر واقعة التحكيم المشهورة بين علي ومعاوية ، والتي جرت في دومة الجندل في اذار ٦٥٨ م ، وكان الحكمان كل من ابو

---

[٨١] . ينظر محمد علي ابو ريان ، تاريخ الفكر الاسلامي ، (الأسكندرية ، ١٩٨٤) ، ص١٢٢ .

موسى الاشعري الذي أختاره اهل الكوفة ، وعمر بن العاص الذي أختاره معاوية ، إذ قام عمر بالاحتيال على الاشعري ، معلنا امام الناس : " هذا ابو موسى شيخ المسلمين ، وحكم اهل العراق ، ومن لا يبيع الدين بالدنيا ، قد خلع عليا وثبت معاوية " [٨٢] ، وقد كان من نتيجة التحكيم ، تمرد جمهرة من جيش علي ، ومن ثم حاربوه في النهروان ، ثم انقسموا بعد ذلك الى عشرين فرقة ، موجبين الخروج على السلطان الجائر وقتاله ، ومن أبرز فرقهم الصفرية والاباضية الذين توطد ملكهم في عمان ، والازارقة الذين امتازوا بالتطرف والقسوة الشديدة ، إذ رأوا ان مرتكب الكبيرة يجب ان يقتل ويمثل به مع نسائه واولاده ، وقد استمر نشاطهم المروع طيلة العصر الاموي ، لاسيما في عصر الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي قاتلهم بضراوة ، وان لم يتمكن من القضاء عليهم ، لكن حركتهم خفت بعد ذلك قبل ان تتلاشى أخيرا .

٣ . تيار رأى أن الحكم بأحقية هؤلاء أو أولئك منوط بالله وحده ، وسمي هؤلاء بالمرجئة ، لأنهم أرجأوا الحكم إلى يوم القيامة ، وقد أختارت هذه الفرقة الوقوف على الحياد بين الفرق المتخاصمة ، وأعلنوا أنهم لا يكفرون احدا بذنب ، بل يتركون امر هؤلاء واولئك الى الله الذي يعلم بأسرارهم وما تخفيه صدورهم . [٨٣]

ظهور النزعة الكلامية

يختلف علم الكلام عن الفلسفة ، في ان علم الكلام خاص بدين معين ، فهو جدل يدور حول أصول دين بعينه ، أما الفلسفة فأنها تبحث عن الحقيقة على وجه العموم ، ومن حيث المنهج ، نجد ان المتكلم يبدأ من مسلمات عقائدية يفترض صحتها مثل : التسليم بوجود الله ووحدانيته ، ثم يلتمس الطرق التي تؤدي إلى اثباتها ، اما الفيلسوف ، فإنه

---

[٨٢] . محمد علي ابو ريان ، تاريخ الفكر الاسلامي ، ص١٢٣ .

[٨٣] . المصدر والصفحة نفسها .

يبدأ من الصفر ، أي من قواعد المنطق الاساسية والمقدمات البديهية ، ويتدرج منها الى النتائج ، مستخدما منهجا عقليا صرفا [٨٤] ، ويعتمد علم الكلام على مناهج عديدة أبرزها :

١- طريقة البرهان الكلامي : ويبدأ فيه المتكلم من اقوال الخصوم ، ثم يصل عن طريق البرهان الى نتائج تناقض هذه الاقوال فتبطلها ، ولهذا علاقة بالنزعة المنطقية التي وصلت الى البلاد الاسلامية بوساطة الترجمات التي راجت في تلك المدة .

٢- طريقة التأويل : ويلجا فيها المتكلم الى تأويل النصوص التي يشعر ان مظهرها لا يتلائم مع الرأي الذي يريد ان يتبناه ، ولهذا علاقة بالنزعة الغنوصية (العرفانية) الشائعة في بلدان المشرق الاسلامي .

٣- طريقة التفويض : وهي الطريقة التي يلجأ إليها المتكلم عند عجزه عن أفحام خصمه ، أو الوصول الى نتيجة محددة بشأن قضية ما ، فإنه عندئذ سيحيلها الى حكمة مجهولة لا تدرك كننهها بالعقل ، لانها مرتبطة بعلم الله وحده .

اما أهم النزعات الكلامية التي شاعت في تلك الحقبة ، فهي كالاتي :

١- الجبرية : وأبرز ممثليها الجهم بن صفوان ، الذي يرى بأن الانسان مجبور في افعاله فلا قدرة له ولا اختيار ، اذ هو كالريشة المعلقة في الهواء ، اذا تحرك تحركت ، واذا سكن سكنت ، وان الله هو الذي قدر عليه افعاله ، ورغم ان نزعته متماشية مع فكر الدولة الاموية ورغبتها في إشعار الناس بان طاعتها واجب مفروض من الله ، الا انه رغم ذلك قتل على يد احد ولاتها سنة ١٢٨ هـ [٨٥] ، ومن ممثلي هذه

[٨٤] . ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٢٥٤ .

[٨٥] . ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٢٦٨ .

النزعة ايضا ، الجعد بن درهم ، الذي ذهب هو الاخر ضحية آراءه السياسية والفكرية ، أما طريقة قتلته ، فقد اتسمت بالقسوة والبشاعة ، إذ خطب والي الكوفة حينذاك ، خالد القسري ، خطبة قال فيها : " أيها الناس انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم فاني اريد ان اضحي بالجعد بن درهم فأنه يقول ما كلم الله موسى ولا أتخذ ابراهيم خليلا تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا " ثم نزل وذبح الجعد بيده تحت المنبر الذي خطب فيه [٨٦] .

٢- القدرية : وهم اصحاب القول بالاختيار ، أي القائلين بحرية الارادة ، وبنظرهم الانسان مختار في افعاله ، حر في ارادته ، لتبرير مفهوم الحساب والعقاب ، اذ هم يرون ان الحساب والعقاب لن يكون ممكنا بدون هذا الامر ، والا سوف تنتفي صفة المنطق عنه ، وهم حاولوا اثبات ذلك بالاستعانة ببعض الآيات القرانية والاحاديث النبوية ، ومن اقطابهم : معبد الجهني [٨٧] .

٣- المشبهه : ويمكن تقسيم هؤلاء الى قسمين : قسم شبهوا ذات الله بذات غيره ، مثل تشبيهه بالإنسان ، وقسم شبه صفاته بصفات غيره ، ومن الصنف الاول ، فرقة السبأية ، الذي يقال انهم شبهوا عليا بذات الإله ، والبيانية اتباع بيان بن سمعان ، الذي زعم ان معبوده انسان من نور يفنى جميعا الا وجهه ، والمغيرية اتباع المغيرة بن سعيد العجلي ، الذي زعم ان معبوده ذو اعضاء على صورة حروف الهجاء ، اما من الصنف الثاني ، فهناك الهشامية اتباع هشام بن الحكم ، الذي يرى ان معبوده على شكل انسان طوله سبعة اشبار وهو كسبيكة الفضة وكالؤلؤة المستديرة ، وهشامية هشام بن سالم الجواليقي ، الذي زعم

[٨٦] . محمد عماره ، المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية ، (بغداد ، ١٩٨٤) ، ص٦١ .

[٨٧] . ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٢٧٠ .

ان معبوده على صورة انسان نصفه الاعلى مجوف ونصفه الاسفل مصمت ، وان له شعرة سوداء وقلبا تنبع منه الحكمة [٨٨] ، كذلك ظهرت العديد من الفرق الاخرى التي تحمل رؤيا محددة عن الاسلام ، انطلق جلها من التراث المعرفي السابق ، والقيم الثقافية القديمه ، وهذه الفرق لا يجب عدها متناقضة مع مسار الوجود الاسلامي ، لأنها نشأت في فترة صيرورة الاسلام ، عندما لم يكن هناك جمع للنصوص الاسلامية ، ولا تدوين للتاريخ والفكر الاسلاميين ، وربما لم يحصل الجمع والتدوين الا بعد ان ظهرت هذه الفرق ، وبرزت الحاجة لدى النخبة الحاكمة بتوحيد مفهومها عن الاسلام ، حتى يكون معبرا عن نفوذها ، والا فالمشبهه يتقاربون في افكارهم مع المظاهرية والحنابلة المتمسكين بالمنطوق الظاهر للنصوص القرآنية ، كذلك لا يجب علينا أن نطمئن للمؤلفات التي تتناول هذه الفرق ، فقد يكون فيها الكثير من الدس والتحريف المغيب لحقيقة تلك الفرق .

٤- نظرا لرغبة السلطة في ايجاد فكر وسطي يجمع الاسلام بالمنطق العقلي ، فقد تبنت فكر الاعتزال ، الذي وجدت فيه خير ملاذ لها بإزاء آراء التيارين الرئيسيين ، فأستعان المأمون العباسي بالفكر اليوناني ومنطقه العقلي ، الذي أصبح سمة بارزة من سمات هذه المرحلة ، وعلى الرغم من ان نزعة الاعتزال قد لا تكون بالضرورة وليدة عصر المأمون ، الا انها غدت راسخة فيه الى حد كبير ، حتى بدت وكأنها من بناة أفكاره ، أما أبرز دعاة هذا الفكر ، فيأتي في مقدمتهم الحسن بن ابي الحسن البصري ، الذي وقف موقفا عقليا من مشاكل ذلك العصر ، ثم تلاه واصل بن عطاء ، وعمر بن عبيد ، اللذان عدا ابرز مؤسسي هذا الفكر ، اضافة الى ابي الهذيل العلاف البصري ،

---

[٨٨] . ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٢٧٣ .

الذي أوضح مبادئ المعتزلة الخمسة : (العدل ، التوحيد ، الوعد والوعيد ، الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، المنزلة بين المنزلتين) ، وأسهم في مناقشة معظم المشاكل العقلية الشائعة انذاك ، ولعل ابرز المشاكل التي ناقشها المعتزلة هي :

أ- ذات الله وصفاته : وهو صلب معتقدات المشبهه وجدلهم ، إذ رأى المعتزلة ان صفات الله عين ذاته .

ب- خلق القران : إذ رأى المعتزلة ان قولهم بأن كلام الله قديم ، سوف يجعل هناك قديمين ذات الله وكلامه ، ولذلك قالوا بأن الله يخلق كلامه ، وان القرآن كتاب مخلوق ، فيما رأى بعضهم الآخر ان كلام الله جسم وعرض .

ت- اما بخصوص الفعل الانساني ، فآمنوا بأن الانسان مخير لا مسير ، حتى يكون مستحقا للعقاب والثواب يوم القيامة .

لقد واجه المعتزلة موقفا قويا من بعض الفرق الاخرى التي رفضت أطروحاتهم ، ومن أبرز الفرق التي وقفت ضدهم : فرقة أهل الحديث المنبثقة عن تيار اهل الشام ومصر ، وأبرز اقطابها : احمد بن حنبل ، الامر الذي دفع العباسيين الى محاولة إرغام الناس على دخول مذهب الاعتزال ، فارضين على فقهاء الفرق الاخرى الدخول في سجالات فكرية مع فقهاء المعتزلة ، لغرض معرفة الفكر الصحيح ، لكن هذه السجالات لم تحقق هدفها المرجو ، ولم تنه التباين بين المذاهب ، بل على الضد من ذلك ، عقدت الموقف بشكل كبير ، ودفعت بعضهم الى اتخاذ موقف متطرف من فكر الاعتزال ، ما دفع العباسيين الى اضطهاد اتباع الفرق الاخرى ، معتبرين ان الفشل في الجدال العقلي هو المعيار الاساس الذي يحدد قيمة أي فكر ، ما يفرض على الفاشلين ترك فرقهم والانضمام الى الفرقة الفائزة ، ويبدو ان الوضع في الدولة العباسية لم يكن قادرا على استيعاب هذه النزعة الجدلية ، خصوصا بعد استفحال سطوة العقائد الاخرى ، التي وجدت في الوضع الجديد خير متنفس لها ، لذلك أخذ العباسيون يميلون نحو الافكار المتطرفة ، منقلبين على مذهب الاعتزال نفسه ، إذ

حصل هذا الامر في عهد الخليفة المتوكل العباسي ، الذي تبنى تيار أهل الشام ومصر ، المسمى مذهب اهل الحديث ، محاولا مواجهة الظروف التي تهدد دولته ، لاسيما بعد انقسامها الى امارات متنازعة ، مستقلة عمليا عن مركز الخلافة ، و ازدياد تهديد الجند ، لكن موقفه هذا لم يأت بأي فائدة لخلفائه ، ما جعل الدولة أسيرة نزاعات طويلة مرعبة ، قتل فيها العديد من الخلفاء ، وشاعت في اطراف الدولة العديد من الحركات المتمردة مثل حركة الزنج في البصرة وحركة القرامطة في الكوفة ، إذ أستفحل أمر هذه الحركات ، وأصبحت تشكل تهديدا مباشرا لسلطة الدولة ونفوذها الديني ، لكن يجب ان ننظر الى هذه الحركات على انها جزء من الحراك الاجتماعي والثقافي الذي شاع في تلك المدة ، إذ مثلت الدولة بسلطتها الاقطاعية ابرز خصومها ، فيما مثلت هذه الحركات رغبة الجياع والمستضعفين في الحصول على حقوقهم من مستعبديهم ومستغليهم ، ولعل أهم حركة عبرت عن ذلك بشكل جلي ، هي حركة حمدان بن الاشعث الملقب (بقرمط) ، الذي ثار بنواحي الكوفة ، وشكل ادارة مدنية في تلك الانحاء ، مارست شكلا من اشكال التنظيم الاشتراكي ، لأنه كان يوزع الأعطيات بشكل متساو بين الناس ، لا فرق بين أمير وفلاح ، الأمر الذي أدى الى انتشار حركته في أنحاء السواد ، سيما بعد المعاناة التي عاشها سكانه الفلاحين في ظل سطوة الملاك ، ولم تقتصر حركة القرامطة على العراق ، بل انها امتدت الى اجزاء من الخليج العربي وبلاد الشام ، محاولة انشاء اول نموذج شعبي للسلطة ، ولعل من ابرز زعمائها : ابو سعيد الجنابي صاحب البحرين ، ثم أبنه ابو طاهر ، الذي قام في نحو ٢٨٦ هـ بالاستيلاء على الحجر الاسود ونزعه من مكانه في الكعبة ، وبقي الحجر الاسود حبيسا لدى القرامطة اكثر من عشرين سنة [٨٩]، كما ظهرت في هذه المدة حركة الزنج بزعيمها علي بن محمد ، التي عدت احدى اهم الحركات المنادية بتحرير العبيد في تاريخ العالم ، لكن هذه الحركات وأمثالها لم يكتب لها النجاح ، لانها ظهرت في عصر غير عصرها ، ومن ثم تمكن الموفق شقيق الخليفة

---

[٨٩] . أبن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٦ ، تحقيق ، عمر عبد السلام تدمري ، (لندن ، ١٩٦٦) ، ص ٢٠٤ .

المعتمد على الله العباسي ، من القضاء عليها ، وفرض النفوذ العباسي على البصرة ، بعد استقلال دام خمسة عشر سنة .

علم الكلام السني

رغم ظهور التيارات السياسية ، إلا أن تبلورها بشكل مذهب كلامي ، لم يتم الا في عهد ابو الحسن الاشعري البصري ، الذي أرسى دعائم علم الكلام السني ، في مقابل نشوء علوم كلامية تعود لمذاهب اخرى ، وفيما يخص تحول الاشعري عن مذهب المعتزلة الذي داوم عليه اربعين سنة : " قيل ان الاشعري سأل استاذه الجبائي عن حال أخوة ثلاث بعد الموت ، احدهم بريء تقي ، والثاني كافر فاسق شقي ، والثالث طفل صغير ، فأجابه استاذه : الزاهد في الدرجات ، والكافر في الدركات ، والصغير من اهل السلامة ، فسأله الاشعري : ، هل يؤذن للصغير بالذهاب الى درجات الزاهد ؟ فأجاب الجبائي بإستحالة ذلك ، لأن الزاهد وصل الى هذه الدرجات بطاعاته ، أما الصغير فلا طاعات له ، فأحتج الأشعري قائلا عن الصغير : ان التقصير ليس منه وان الله لم يبقه ولم يقدره على الطاعة : فيرد الجبائي قائلا : ان الله يقول له - أي للصغير - كنت اعلم انك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقا للعذاب الاليم فراعيت مصلحتك ، ولم يلبث الأشعري ان عاد الى التساؤل قائلا : فلو قال الأخ الكافر يا إله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالي ، فلما راعيت مصلحته دون مصلحتي ؟ فرد عليه الجبائي قائلا : أنك مجنون [٩٠] " ، لكن هل هذه هي الحقيقة أم أن سبب تحوله هو لتغير الحال على فكر المعتزلة الذي لم يعد مدعوما من السلطة كما كان في السابق ، اما أهم آراء الاشاعرة التي حاولت ان تلتزم بالمنهج العقلي في مناقشتها لثلاثة قضايا جدلية فهي :

١- ذات الله وصفاته : إذ رأوا ان ذات الله قديمة وبسيطة ورفضوا التشبيه كالمعتزلة ، لكنهم يرون امكانية رؤية الله في الآخرة ، لكن ليس بالصورة

---

[٩٠] . ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٣٢٢ .

الانسانية كما يرى المشبهه ، بل من غير حلول أو حدود او تكييف ، وقالوا ان وجه الله اشارة الى الله نفسه ، ويده الى قدرته ، وعينه الى رؤيته للأشياء ، إذ اثبتوا الصفات المعنوية لله ، لكنهم ميزوها عن صفات البشر .

٢- خلق القران : رفضوا القول بخلق القران ، لكنهم وضعوا حلا توفيقيا لهذا الأمر حتى يتجنبوا التناقض ، فقد ميزوا بين كلام الله النفسي والحروف والأصوات التي نزل بها ، فقالوا ان كلام الله النفسي قديم قدم الذات الالهية ، اما الحروف والاصوات فهي مخلوقة لتوصيل كلام الله الى المخلوقين ، الذين هم عبارة عن كائنات جسمية .

٣- الفعل الانساني : أخترع الاشاعرة نظرية أسموها نظرية الكسب ، لم تكن على أية حال كافية لإنهاء الجدل حول مسؤولية الفعل الإنساني ، لإنها ضمت شيئا من التناقض والغموض ، فقد قسموا الفعل الى ثلاثة اقسام : اتقان الفعل واحكامه ، وهي خاصية تعود لله وحده ، والقدرة على تنفيذ الفعل ، التي عدوها خارجة عن ذات الانسان ، لإنها قد تفارقه أحيانا ، ثم لو كانت مشتركة بين الله والانسان معا ، لجاز اجتماع مؤثرين في وقت واحد ، وهذا محال ، اما الارادة ، أي تقرير الفعل او الاختيار من عدة ممكنات ، فهي للعبد وحده ، وبسببها يكون العبد خاضعا للمسائلة يوم القيامة عن افعاله في الدنيا " [٩١] .

و قد تمثلت أهمية هذا المذهب الكلامي الأشعري ، في تبنيه من قبل معظم المذاهب الفقهية الأخرى ، وذلك لما أتسمت به آرائه من الإعتدال ، لاسيما رأيه في عدم تكفير اتباع المذاهب الأخرى ، أو التمييز بين الصحابة ، والنظر الى اعمالهم على انها مرتبطة بالظروف التي كانت تسود حينها ، الأمر الذي يتوافق مع رغبة الدولة في إيجاد مذهب كلامي يحقق هدفها في توحيد المذاهب الفقهية ، وعلى الرغم من ان

---

[٩١] . ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٣٢٩ .

المذهب الاشعري قد انجب مفكرين كثيرين من امثال الباقلاني والجويني والغزالي ، إلا أن آرائهم ما هي إلا تنويع لآراء المتقدمين منهم .

علم الكلام الشيعي

لم يتبلور هذا العلم مرة واحدة ، بل مر بفترة طويلة من التطور امتدت عبر مراحل الحكم العربي الاسلامي ، فمنذ نشوءه ، لم يأخذ تيار أهل العراق إتجاها واحدا ، بل تشعب الى عدة اتجاهات : أولها الاتجاه الإسماعيلي الذي انساق خلف النزعة الباطنية وغرق في أتونها ، وربما مثل هذا الإتجاه المسار الأول للفرع الشيعي ، اما الإتجاه الزيدي فقد توقف عند النزعة الإعتزالية ، وبقي متمسكا بأطرها إلى النهاية ، وان جمد عند قوالبها القديمة ، الوحيد الذي اخذ قالبه الكامل هو المذهب الأثنا عشري ، الذي تطور لينشأ علم الكلام الخاص به مجاراة للمذاهب السنية ، اما أهم مفكري هذا المذهب ومؤسسي أصوله فهم : محمد بن يعقوب الكليني صاحب أصول الكافي ، حدود سنة الف ميلادية ، والشيخ الصدوق بن بابويه ، والشيخ المفيد البغدادي في حدود سنة ١٠٢٢ ميلادية ، والشريفان الرضي جامع نهج البلاغة والمرتضى ، وفضل الطبرسي صاحب التفسير الشيعي المعروف للقرآن ، وابن البطريق وأبن طاووس ، لكن أهم أعلام هذا المذهب هما : نصير الدين الطوسي الذي واكب هجوم المغول على بغداد ، والعلامة الحلي المتوفى سنة ١٣٢٦ م ، و أما أهم مبادئ هذا المذهب فتتمثل في :

١- العصمة : إذ يؤمن المذهب الشيعي بعصمة الانبياء والأئمة ، ويعطي لذلك براهين عقلية ونصية ، لاسيما الائمة الأثنا عشر ، بدءا من علي بن ابي طالب وصولا إلى المهدي ، وعلى الرغم من عدم وجود حس تقديسي لدى العراقيين القدماء ، وعدم إيمانهم بعصمة الآلهة و البشر ، الا أنهم من جهة

اخرى أمنوا بوجود بشر فائقي الحكمة ، فهناك إشارات لوجود حكماء يمتازون بالحكمة العالية عاش بعضهم في عصور قبل الطوفان ، فيما اشارت ملحمة جلجامش الى ان جلجامش كان يتصف بصفات تفوق صفات البشر ، فهو " رأى كل شيء" و " عرف جميع الاشياء وافاد من عبرها وهو ""العالم العارف بكل شيء" الذي " كشف عن الخفايا المكتومة " ولذا فإما أن مبدأ العصمة يناظر مبدأ الحكمة الذي كان شائعا في حضارة بلاد الرافدين ، أو أنه شبيه بآراء غير عراقية ربما لها صلة بالأديان التوحيدية السائدة في العراق قبل الإسلام مثل : الزرادشتية واليهودية والصابئية .

٢- التقية : وهو مبدأ ربما لنشأته صلة بالظروف السياسية التي مرت بها البلاد في الحقب المتأخرة بعد توالي الحقب الاجنبية والاستبدادية على البلاد ، إذ وجدنا الناس يخفون مشاعرهم وافكارهم اتقاء المخاطر ، وربما انتقل هذا المبدأ الى الشيعة ، لان غالبية المنتمين الى المذهب الشيعي هم من السكان العراقيين القدماء .

٣- المهدوية وهي فكرة ليس هناك ما يناظرها في فكر حضارة بلاد الرافدين ، بل يمكن تشبيهها بفكرة المخلص الشائعة في الديانات الأخرى كالديانات اليهودية والمسيحية والزرادشتية والبوذية ، لكن ربما هناك بعض الشبه ما بين هذه الفكرة والمعتقد التموزي ، الذي يجعل حياة تموز نموذجا لدورة الخصب والنماء ، فهو يموت في الشتاء الذي يواكب توقف الزراعة وتساقط الأوراق وموت بعض النباتات ، ويحيى في الصيف الذي يواكب عودة الزراعة ونمو النباتات من جديد ، إذ يستمر ذلك إلى ما لا نهاية، فيما يعطينا الموروث الرافدي امثله على خلود بعض الشخصيات الحكيمة ، مثل : بطل الطوفان البابلي (أوتو - نبشتم) ، فضلا عن ملوك قبل الطوفان الذين حكموا ازمانا طويلة .

من الأسباب المعقولة لظهور ما يسمى بالفلسفة الإسلامية فضلا عن تأثير الفكر الإعتزالي ، حصول التحول البارز في توجه السلطة العباسية من تبني فكر الاعتزال الى تبني النقيض فكر أهل الحديث والسنة ، الذي حصل في عهد الخليفة العباسي المتوكل ، الأمر الذي سمح بنشوء فكر متحرر من بعض قوالب النزعة الكلامية لاسيما وبشكل خاص أسلوبها في الجدل ، الا ان بقاء غائيته العقائدية وضع الفكر الجديد على طاولة التشكيك منذ البداية ، وابقى الجدل قائما حول هويته أن كان فلسفة أم فكرا كلاميا ، ولعل ابرز معلم في هذا التطور عودة النزعة العرفانية (الغنوصية) الى واقع الجدل ، لتشكل الموازي الجدلي لفكر الحديث والسنة ، بل وكل الافكار الكلامية المناقضة ، وان تدثرت بدثار الفلسفة ، لان مضمون ما سمي بالفلسفة الاسلامية لم يكن ذا منطق واحد ، ولم ينحسر اعتمادها على نطاق الفكر اليوناني ، كما يحاول بعضهم ان يفترض ، الأمر الذي جعلها تحمل ومنذ البدء عوامل تفككها ، بعد ان طوت في منطوقها أكثر من تركيب ، اذا كان للفكر اليوناني وجوده الملموس بين طيات نسقها الفكري ، فضلا عن الفكر العراقي الذي يظهر من خلال بعض متونه الفكرية و الفلكية ، الامر الذي يمكن ربطه بالجدل الذي رافق تكوين العقل العراقي ، اما سمات هذه النزعة فيمكن تحديدها بالآتي :

١- اعتمادها الأسلوب التلفيقي بدمج فكر الفيلسوفين أفلاطون وأرسطو، سواء أكان ذلك بسبب النقل الخاطئ لعناصر هذا الفكر ، او بسبب التشويه الذي مارسته مدرسة الاسكندرية السابقة لغرض ايجاد طريقة تجمع فيها بين النزعة المثالية والنزعة الواقعية ، الامر الذي انعكس على مضمون ومسار الفلسفة الاسلامية ، التي أستسهلت هذا الأمر أو كيفته بما يناسب طرحها الاسلامي ، وفي هذا يلاحظ وجود تشابه بين

دواعي ظهور مدرسة الاسكندرية السابقة وظهور مدرسة بغداد الفكرية الاسلامية ، لأن ظهور المدرسة السابقة ، جاء استجابة للتحدي المسيحي ، أي هي محاولة أخيرة للدفاع عن قلاع الوثنية المحتضرة ، فيما جاء ظهور مدرسة بغداد انطلاقا من السجال الفكري للتيارات الإسلامية ، وبشكل خاص التيارين الرئيسيين تيار أهل العراق وتيار أهل الشام ومصر .

٢- تسرب العناصر الغنوصية إلى مضمونها الفكري ، لأننا وجدنا ان معظم الفلاسفة ابتداءا من الكندي مرورا بالفارابي وابن سينا قد أخذوا بذلك ، الأمر الذي يدل على ان هذا التيار ربما يكون السبب الاساس لنشوء ما يسمى بالفلسفة الاسلامية او على الاقل أحد عوامل نشوئها ، حتى ان الفيلسوف ابو البركات البغدادي ، قد نقد هذا التوجه وعده أمرا مفتعلا او زائدا في بنية الفلسفة الاسلامية .

٣- توافقها مع المبدأ الاسلامي ، اذ لا يمكن للفلاسفة المسلمين ان يتغاضوا عن انتمائهم الديني ، الأمر الذي دفعهم الى الانتقاء في رؤاهم الفلسفية بحيث يتجنبوا التناقض مع الفكر الاسلامي ، فمثلا حاولوا تجنب القول بقدم العالم الذي يفرض وجود قديم آخر مع الله ، وحاولوا التناغم مع فكرة ان الله فاعل وموجود في مسار الحركة الكونية ، وهو يطرح دليلا آخر على أن ظهور ما يسمى بالفلسفة الاسلامية جاء انسجاما مع مسار الجدل الكلامي ما بين الفرق الإسلامية .

الفلسفة الإسلامية المشرقية

تنقسم ما تسمى بالفلسفة الإسلامية على قسمين : الفلسفة الإسلامية المشرقية وهي التي ينتمي فلاسفتها إلى المشرق الإسلامي ، إذ تتبنى في أطروحاتها بعض الأفكار المشرقية مثل : العرفانية (الغنوصية) ، والفلسفة الإسلامية المغربية التي ينتمي اغلب فلاسفتها إلى المغرب الإسلامي وتتبنى النزعة العقلية ، وسنقتصر في تناولنا لهذا الموضوع على الفلسفة المشرقية ، لصلتها بموضوعنا ، لكن قبل ذلك لابد من اعطاء نبذة مختصرة عن مذهب العرفانية (الباطنية او الغنوصية) ، حتى نتبين حقيقتها وأصلها ، فعلى الرغم من أن هذا المذهب الفكري ليس من صميم فكر بلاد الرافدين ، إلا أنه أصبح جزءا من نسق بعض الأديان التي أنتشرت في البلد في المدة التي تلت سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م ، أي أثناء الحكم الفارسي للبلد ، و العرفانية (الغنوصية) ليست نتاج شعب واحد أو حقبة زمنية معينة ، إنما تجمعت عناصرها من عدة حضارات ، مثل حضارات الفرس والهنود والصينيين واليونانيين والمصريين ، فضلا عن تطورها عبر مدة زمنية طويلة .

اما اهم الفلاسفة المسلمين الذين يرتبطون بموضوع دراستنا فهم :

أ) الكندي (١٨٥ هـ) [٩٢]

هو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي الكوفي ، الذي أثيرت بعض الشكوك حول عقيدته ربما بتاثير اسمه الذي تغلب عليه المسحة المسيحية ، لكن على العموم هناك من يرفض ذلك استنادا لامرة والده على الكوفة ، اذ لا يعقل انذاك ان يؤمر مسيحي على مدينة اسلامية ، فكيف بالكوفة مع مالها من الاهمية والمنزلة ، والكندي هو اول من من وصفوا بالفلاسفة المسلمين ، أي رائد ما يسمى بالفلسفة الاسلامية ، الأمر الذي يستوجب منا ان نقف قليلا لدراسة الأسباب التي دفعته لاعتناق هذا التيار ، هل جرى الامر بالصدفة او بطريقة عرضية ؟ أم جاء بتأثير من الجدل الاسلامي القائم انذاك ؟ ان الاجابة على ذلك تنطلق من معاينة الظروف السياسية السائدة انذاك ،

[٩٢] . ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٣٤٩ – ٣٦٢ .

وانقلاب الدولة على متبناها السابق الفكر الاعتزالي ، وتبنيها لفكر اهل الحديث والسنة ، فكان الكندي المعتزلي انذاك احد المطرودين من قصر الخلافة ، ما دعاه الى تبني التيار العرفاني كونه من خصوم النزعة الظاهرية التي يمثلها (فكر اهل الحديث والسنة) ، ومن هنا جاء تبنيه للمذهب العرفاني وادراجه ضمن نسق فكره ، أيفاءا منه لهذا التوجه الجديد الذي يحمل صفة التضاد مع المذهب الظاهري ، وربما لكان لإستيطانه في باكورة حياته لجنوب العراق بعض الأثر في ذلك ، إذ ربما أطلع على ما بقي في المنطقة من الموروث العراقي القديم [٩٣] ، الامر الذي يدفع للاعتقاد بان النزعة التي سميت بالفلسفية ، ما هي الا ردة فعل مباشر لذلك التوجه الرسمي وغير الرسمي المعادي للمنهج العقلي ، بدليل مزجها مذهب الغنوصية بالفكر العقلي ، ما يجعلها واحدة من التوافقات النادرة بين الفكر المشرقي والفكر اليوناني ، مع اعتقادنا بأنها (أي النزعة الغنوصية) هي العنصر الهام في هذا التحول ، بعدما انتصر الكندي لمكبوته العرفاني ومتبناه العقلي ، فهي محاولة لاستعادة المبادرة العرفانية والعقلية في وسط اخذت الظاهرية تتقدم فيه وتحوز النجاح تل و النجاح ، وفي هذا لابد لنا ان نرد على طرح الجابري الذي عد العرفانية العامل الحاسم في انهيار النظر العقلي ، لنذكره بدور الظاهرية (البيانية كما يسميها) أيضا ، اذ لا يعقل ان يتجاهل وهو المفكر الحصيف بان اخطر ما واجهه النهج العقلي لم تكن النزعة العرفانية وحدها بل ذلك التوجه السلطوي الذي حمل على كل ما يناقض الظاهرية ، التي هي لوحدها بحسب معتنقيها يمكن ان تحفظ للاسلام وجوده وتمنع عن فكره أي خطر محدق ، وعلى الرغم من ان العرفانية تشكل خطرا واضحا على الظاهرية فإن المنهج العقلي (البرهانية بوصف الجابري) هو ما يحمل تقويضا مباشرا لدور البيان وقيمته ، لانه سوف يدل على كل ما في البيان من تناقض قد لا يمكن كشفه بأي وسيلة اخرى ، ولذلك فان العامل الحاسم في موت تيار المنهج العقلي ينبع من موقف الظاهرية الحاد منه ، الذي وصل حد الابادة الفكرية في نهاية المطاف ، كما حصل

[٩٣] . القفطي ، اخبار الحكماء ، تحقيق : أبراهيم شمس الدين ، (القاهرة) ، ص٢٤١ ـ٢٤٧ .

في حرق مؤلفات ابن رشد المفكر العقلي البارز ، وبعدما نجحت الظاهرية في ازالة العائق العقلي امام تسيدها في الساحة الأسلامية ، أصطدمت بالعرفانية في صدام فكري أستمر قائما لأمد طويل ، اما أهم ابداعات الكندي الفكرية ، فيمكن حصرها بإنجازه تحديد المصطلحات المهمة لمسار ما يسمى بالفلسفة الإسلامية ، إذ عد الرياضيات ومعاني الالفاظ من الاساسيات المطلوبة فيها ، كذلك شن هجوما ضاريا ضد خصوم الفلسفة ، مبينا ان الذين ينكرونها يقعون في تناقض فاضح ، لأنهم عندما يفعلون ذلك ، لابد ان يستندوا على دليل ما ، وهم في ذلك يحتاجون الفلسفة في نقض الفلسفة ! وهذا تناقض ، لكنه لم يتوقف عند هذا الحد ، بل وصل به الامر حد تكفير الذين يرفضون الفلسفة بقوله : " ويحق ان يتعرى من الدين من عاند فقه الاشياء وحقائقها وسماها كفرا " [٩٤] ، كذلك تمثلت في فلسفته الخطوط العامة لما سمي بالفلسفة الاسلامية ، بما في ذلك اعتماده نزعة التخير او التلفيق لتوفيق ارائه مع طروح الدين الاسلامي ، وتناول ايضا رحلة النفس الى العالم الاعلى على طريقة الافلاطونية المحدثة .

ب) الفارابي (٨٧٠ – ٩٥٠ م) [٩٥]

وهو ابو نصر محمد بن طرخان الفارابي الملقب بالمعلم الثاني تشبيها له بارسطو المعلم الاول ، وقيل ان السبب بتلقيبه بهذا اللقب يعود الى معلوماته الموسوعية وذكائه المفرط ، وهو ينتسب الى بلدة فارياب التي تقع في بلاد ما وراء النهر ، درس الفلسفة في بغداد على يد ابي بشر متي بن يونس ويوحنا بن جيلان ، وبعد ان قضى فيها ثلاث سنوات هاجر متنقلا بين اصقاع الدولة الاسلامية طلبا للحياة الكريمة ، تأثر على ما يبدو برؤى وافكار الفيلسوف الاول الكندي ، وحاول اقتفاء اثره في

[٩٤] . ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٣٥٤ .
[٩٥] . المعلومات الواردة عن حياة الفارابي وفلسفته منقولة من ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٣٨٢ .

بعض المسائل لاسيما في محاولته تعقب الاسلوب التلفيقي الذي يمنحه التلائم مع الفكر الاسلامي ، فيما اعطى لنظرية الفيض حيزا مهما في فلسفته ، إذ عد الفارابي الله بمثابة عقل بريء من المادة انسجاما مع رؤى النزعة الغنوصية ومضمون نظرية الفيض الافلوطونية ، اما تحول هذا العقل الى مادة فقد شرحه الفارابي وسواه من فلاسفة المسلمين بشكل مشابه تقريبا لطريقة افلوطين الرمزية ، إذ اعتبر الفارابي ان الوجود لا ينتج عن الله غائيا (أي بإرادة منه) ، بل نتيجة خصوبة الواحد وسعة وجوده وغناها المطلق ، ورأى ان الصدور الاول (الفيض) يجب ان يكون مكافئا أي واحدا لكي نتلافى الاعتقاد بوجود كثرة في ذات الله ، فتظهر العقول تدريجيا ، التي حاول تمثيلها بالافلاك المعروفة انذاك (الكواكب) ، وهو ما يسمح بربط هذه الفلسفة بأفكار الفلكيين العراقيين الذين امتلكوا معرفة واسعة في شؤون الكواكب ، ومما يلاحظ على فلسفة الفارابي بل ومعظم فلاسفة المسلمين ، اهتمامهم الزائد بطروح نظرية الفيض ، ما أبان عن احتمال ان تكون فلسفة المسلمين قد قامت في جوهرها على هذه النظرية ، الامر الذي دفع العديد من المفكرين اللاحقين الى التعرض الى ذلك بشيء من النقد وربما التهجم أيضا ، إذ سخر احدهم وهو ابو البركات البغدادي من اهتمام الفارابي وابن سينا الزائد بهذه النظرية ، وايرادها في فلسفتهم بدون سند برهاني و كأنها وحي منزل ، فيما رأى بن رشد (الفيلسوف المغربي) ، ان هذه الاشياء هي التي اضاعت هيبة الفلاسفة ، وجعلتهم مستهدفين من الاخرين ، لاسيما الغزالي الذي وصل في نيله منهم حد الحكم بتكفيرهم .

ج) الشيخ الرئيس ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧ م) [٩٦]

ويعد هذا الفيلسوف من أهم فلاسفة مدرسة بغداد الفلسفية ، لان ما يسمى بالفلسفة الاسلامية تكاملت لديه ، وبرزت للآخرين كقالب فكري واضح المعالم ، ما جعلها

---

[٩٦] . المعلومات الواردة عن حياة و فلسفة ابن سينا مأخوذة من ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٤٠٧

جزء من حراك الفكر الاسلامي ، وفيما يخص أصول فلسفة ابن سينا ، يبدو انه اعتمد في البداية على علاقته بالحركة الاسماعيلية ، وتأثره بطرحها الغنوصي ، فيما اعتمد على جهده الذاتي في اكتساب المعرفة والحصول على ما يحتاجه منها ، فهو يشير الى انه تعرف بالصدفة على افكار الفارابي الفلسفية وتأثر به كثيرا ، الامر الذي يمكن عد الاخير استاذا لابن سينا ، الذي لم يعش في موطنه الاصلي بخارى طويلا ، بل تنقل بين الامارات الاسلامية ، معتليا مناصب هامة فيها ، مستفيدا من سمعته كطبيب مرموق ، ومن أهم اعماله الفلسفية : أنه رصن مضمون ما يسمى بالفلسفة الاسلامية ، ومن ثم فإذا كان الفارابي هو الذي أوضح شكل هذه الفلسفة ، فإن ابن سينا هو بلا شك أهم من رتبها ونظمها ، لاسيما بما امتازت به فلسفته من حسن الصياغة وقوة المضمون ، مع انه لم يغير كثيرا في افكارها ، ووقع مثل غيره في فخ النزعة التلفيقية ، التي أصابت بدائها ما سمى بالفلسفة الاسلامية عموما ، اما نظرية الفيض ، فقد اعطاها منزلة هامة في فلسفته ، منطلقا بها الى آفاق ابعد .

د) ابو البركات البغدادي (٥٤٧ هـ) [٩٧]

هو هبة الله بن علي بن ملكا البغدادي ، يهودي العقيدة يرجح انه اسلم ، لذلك يمكن عد فلسفته على انها امتداد لفلسفة من سبقه من الفلاسفة المسلمين ، على الرغم ما امتازت به فلسفته من طروح جريئة وجديدة ، أسهمت في تطور الجدل الفكري الاسلامي ونشوء تيارات اخرى جاءت كانعكاس مباشر او غير مباشر لهذا التطور ، فنقد ابو البركات لفلسفة ابن سينا ربما مهد لنشوء التصوف الاسلامي بشكله الفكري المنظم كما عند السهروردي وابن عربي ، والغريب ان السهروردي الذي ترتبط نزعته الصوفية بجزء هام من طروح ابو البركات البغدادي ، كان من اشد خصوم هذا الاخير ، حتى وصل به الامر حد قذعه بكلمات نابية ووصفه بنعوت شائنة ، إذ يقول " تأتى لمثل هذا المجنون القذر الاتيان بمثل هذه الهذيانات القبيحة لانه لم يكن

---

[٩٧]. عن ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص٥٢١ .

للحكمة في الارض سياسة قائمة!" [٩٨] ، من أهم افكاره التي مثلت انعطافة هامة في مسار ما سمي بالفلسفة الاسلامية قوله بالخلق المتعدد الابعاد ، إذ عد هذا الامر بمثابة انقلاب على رؤى الفلسفة السابقة في الخلق الخطي او المستقيم ، كذلك دافع عن وحدة العقل ، معتبرا اقسام العقل التي اشار اليها المشائيون على انها تعبير عن عملياته العقلية فحسب ، وهو يتفق مع افلاطون بقوله بعودة النفس الى العالم بعد مجيئها منه ، مشيرا الى وجود عالم اسماه عالم الملائكة ووصفه بفوق الحسي يشابه كثيرا عالم المثل لدى افلاطون ، ويبدو ان موقف او البركات البغدادي كان انتصارا واضحا لمنهج الفلسفة اليونانية ، لانه حاول تخليص الفلسفة الاسلامية من ركنها الغنوصي ، الامر الذي ربما دفع السهروردي المتصوف على الطريقة الغنوصية المشبعة بشيء من الطرح العقلي ، الى التهجم عليه بتلك الطريقة القاسية ، لكن ما يثير الغرابة ليس هذا الامر فقط ، إنما دفاع الفقيه الحنبلي ابن تيمية عنه ، الامر الذي يطرح تساؤلا مهما عن دافعه من ذلك ، خصوصا وان ابو البركات هو جزء من جسد ما سمي بالفلسفة الاسلامية ، وواحد من خصوم النزعة الكلامية الحنبلية ، فهل يكون سبب ذلك لاقتراب ابو البركات من مذهب الاشاعرة ام هناك سبب كامن لا نعرفه ؟ ربما توفر لنا مسيرة الفكر الاسلامي شيئا من الاجابة عن هذا السؤال .

هـ) السهروردي (٥٥٠ ـ ٥٨٨ هـ) [٩٩]

هو شهاب الدين ابو الفتوح يحيى بن حبشي السهروردي ، نسبة الى مدينته سهرورد إحدى مدن شرق العراق ، تنبع اهمية هذا الفيلسوف من كونه يمثل بداية نزعة الاشراق (الفيض) التي استفردت بما سمي الفلسفة الإسلامية بعد ان وقع عنها جناحها الاخر المنهج العقلي ، ما يؤكد اختفاء الظاهرة العقلية من الواقع العربي

[٩٨] . المصدر نفسه ، ص٥٢٤ .

[٩٩] . أخذت المعلومات عن هذا الفيلسوف من ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص ٥٥١ ـ ٥٥٥ .

الاسلامي ، بحيث لم يعد في ساحته الا المذهب السلفي والمنهج العرفاني ، اللذان بقيا يسودان الساحة ويتنازعانها طويلا مع أرجحية واضحة للأول ، وفي ما يخص مذهب السهروردي الفلسفي ، فهو يدور بجملته حول فكرة الاشراق (الفيض) ذات المنشأ اليوناني ، اذ يمثل (نور الانوار) مبدأ الوجود الذي يفيض عنه النور الابداعي الاول ، ثم تصير منه انوارا طويلة تسمى الظواهر العالية ، ثم انوار عرضية اسماها ارباب الانواع ، اما عالم البرزخ فقد عده العالم الذي يتوسط عالمي العقل والحس .

وهكذا ترددت ما تسمى بالفلسفة الاسلامية لتغدو مجرد تمثيل للعرفان (الغنوص) ، ولم نعد نشهد فيها تلك الاسماء البارزة ولا تلك الأفكار العميقة ، الامر الذي يعكس الانحدار الذي شهده العالم الاسلامي في العصور المتأخرة .

المؤلفات الفكرية والثقافية

أنتج الصراع ما بين التيارات الإسلامية مؤلفات عدة عبرت بجلاء عن نسق المرحلة ، وقد انقسمت هذه المؤلفات ما بين تلك التي تنتصر للعرب وتلك التي تنتصر للشعوب الاخرى ، فضلا عن ظهور مؤلفات موضوعية هدفت الى تقريب وجهات النظر ، واشاعة روح التآخي بين الشعوب الداخلة في البوتقة الإسلامية أو الخاضعة لحكم العرب ، فكان لهذه المؤلفات المهمة دورها المهم في مسيرة الفكر الاسلامي ، وربما أسهمت ايضا في رسوخ المعتقد الاسلامي بشكل عام ، على الرغم من النزعة الحرة لبعض هذه المؤلفات والهدف الانساني العابر للدين ، ومن أهم هذه المؤلفات :

١- كتاب كليلة ودمنة [١٠٠]: والشائع انها قصص هندية ترجمت في وقت ما الى الفارسية ، ثم ترجمت لاحقا الى العربية ، ومؤلفها الاصلي كما تشير بعض الروايات هو (بيدبا الهندي) ، اما مترجمها الى العربية ، فهو عبد الله بن المقفع ، المثقف العراقي الشهير ، وصاحب المؤلفات والترجمات العديدة ،

[١٠٠] . ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص ٨٩ – ٩٠.

وبخصوص هذا المؤلف ، لدينا اشارات تدل على وجود غرض معين لتأليفه ، وربما تعكس الشخوص والاحداث التي تضمنها ، الحالة السياسية القائمة ، والجدل الدائر انذاك بين الفئة الحاكمة والشعوب المحكومة ، وكأن الكاتب اعد ليكون رسالة الى الحكام ، ليرأفوا بمحكومهم ، ويعدلوا معهم ، فقد تضمنت الحكايات التي اعتمدت على شخوص حيوانية ، ربما لاخفاء غاية هذا الكتاب ، كثير من الحكم والنصائح ، التي ربما تؤكد أهمية هذا الكتاب للقضية السياسية والثقافية ، وسواء أكان هذا الكتاب من أصل هندي أم فارسي ، أو أنه من تأليف عبد الله بن المقفع نفسه ، فهو يشير الى رغبة تيار كبير من المثقفين في ايصال صوتهم الى السلطة ، وإظهار الطابع الصحيح للحكم ، ولذلك لا غرابة في ان يذهب هذا المثقف ضحية آراءه الجريئة وطروحاته الحرة ، ليقتل من قبل السلطة ، وبطريقة بشعة ، دلت على قدر عال من الهمجية والنكران.

٢- ألف ليلة وليلة : وهو كتاب أشتمل على كثير من الحكايات المهمة ، التي ربما تعود عائديتها الى شعوب مختلفة ، لكن تم تجميعها في بغداد خلال موجة الجدل التي شهدتها هذه المدينة إبان العصر العباسي ، وذلك لتحقيق أهداف وغايات معينة [١٠١]، ومن خلال دراستنا لمتن الحكايات : نلاحظ وجود رغبة عارمة لدى جامعي هذه الحكايات لنشر ثقافة التآخي بين الشعوب المختلفة ، ومحاولة الغاء الفوارق العنصرية والقومية والدينية بين بني البشر ، ما يؤكد على طابعها السياسي والثقافي ، وبالرغم من أن ما لدينا من الكتاب يمثل الشكل الاخير له ، فإننا نعتقد ان هذه الحكايات ربما لم تتعرض الى تغييرات كبيرة في مراحل استنساخها ، وربما حملت القسط الوافر من مضمونها الأول ، ما يتيح لنا عدها تمثيلا للعصر الذي ظهرت فيه لأول مرة ، ورغم صعوبة تحديد سقف زمني لتدوينها ، الا اننا نمتلك اشارات قد تفيد في هذه الناحية ، إذ

---

[١٠١] . حول الكتاب ينظر : محسن جاسم الموسوي ، الوقوع في دائرة السحر ، (بغداد ، ١٩٨٦).

تشير بعض الدلائل الى ان زمن تدوينها قد لا يتجاوز كثيرا زمن سيادة نزعة الاعتزال ، بدليل الاشارات التي حملتها الحكايات عن مجالس الجدل وأسماء بعض الاشخاص الذين لهم شأن في ذلك العصر ، مثل : المفكر المعتزلي ابراهيم بن سيار النظام وغيره ، كما يلاحظ تبني الحكايات لبعض مفاهيم الاعتزال ، كالعدل وتقدير العقل وإحترام الآخر ، ومحاولة ايجاد مناخ داعم للتاخي الانساني ، الذي يحاول المعتزلة اشاعته في أوساط المجتمع ، ولعل مما يثبت ذلك ايضا ، تبجيل الحكايات للرموز الاسلامية ، إذ يقترن ذكر الرموز بعبارات التعظيم والتبجيل ، فيما حاولوا ان يطرحوا فكرة الترابط بين الحضارات والأديان الانسانية ، والتقائها بهدف واحد هو خدمة الانسان في كل مكان وزمان ، كذلك ابتعدت الحكايات عن طابع التزمت والغلو ، وجنحت الى التحرر والتسامح ، وضمت ايضا كثيرا من الصور الأدبية التي تعبر عن ايدولوجية كتبة الحكايات ومروجيها .

٣- رسائل أخوان الصفا : وأهمية هذه الرسائل : انها تضمنت نظرة انسانية واسعة ، واحتفت بالمنهج العلمي وبقيمته البحثية ، الا انها اشتملت أيضا على رؤى عرفانية (غنوصية) ، تجعلها جزءا أكيدا من المنتوج الثقافي للمشرق الإسلامي ، لقد انقسم المؤرخون حول عائدية هذه الرسائل ، ففيما أكد كثير من المستشرقين على شيعية اخوان الصفا ، مثل : كازنوفا وايفانوف وغولد تسيهر ، رأى آخرون غير ذلك ، وحاولوا نكران هذا الامر لدواعي معينة ، وبالطبع لم يصمد هذا الرأي امام الأدلة والتحليل العلمي للرسائل ، الأمر الذي دفع كثير من المؤرخين الى تحديد الجهة المسؤولة عن تحرير الرسائل ، كما فعل هنري كوربان عندما عد كتبة الرسائل جزء من جمعية اسماعيلية واضحة المعالم ، بل وربط تصوراتهم بتصورات صابئة حران [١٠٢] ، كما أيد هذا الرأي الأديب طه حسين ، حين نسبهم الى غلاة الشيعة ، وربما

---

[١٠٢]. كوربان ، تاريخ الفلسة الأسلامية ، ص١٩٦.

الاسماعيلية بحسب تعبيره [١٠٣]، وماجد فخري الذي أشار الى الرأي نفسه [١٠٤]، أما زمن تأليف هذه الرسائل ، فهناك بعض الإشكال في تحديده بدقة ، وربما تم ذلك في نهاية القرن الرابع الهجري ، استنادا الى بعض الاشارات الواردة في متنها ، لكن يمكننا الافتراض ان الرسائل ربما كتبت بمرحلة وطورت وتكاملت في مرحلة اخرى ، إلا أنه مهما يكن الأمر ، فإن الرسائل قد كتبت ـ على الأرجح ـ في فترة لا تتجاوز زمن سيادة الفكر الإعتزالي ، على الرغم من الدراسات التي تشير الى زمن اخر ، فحتى لو قبلنا بحرفية إشارة ابو حيان التوحيدي عن هذا الامر ، فإننا لن نبتعد كثيرا عن هذا الزمن ، لأن قوله ان مؤلفي الرسائل من كتاب عصره ، لا يعني الا انهم عاشوا بالقرب من زمنه وليس بالضرورة قد عاصروه كليا [١٠٥]، ولهذا يمكننا الى حد ما التعويل على إشارة الداعية المطلق اليمني ادريس عماد الدين ، في كتابه عيون الاخبار (٨٧٢ هـ) ، عن غرض تأليف هذه الرسائل ومؤلفيها ، إذ أن هذه الاشارة المتأخرة ربما تنطلق من حقائق معينة ، لها علاقة ـ اذا ما صحت ـ بممانعة النخبة الثقافية لتيار أهل العراق ، لإعتماد الدولة على منهج اليونان وثقافتها ، في التعاطي مع الفكر الاسلامي ، الأمر الذي أوجد المبرر لمقاومة هذه الثقافة والرد عليها بقوة ، وعلى الرغم ما حملته تلك الاشارة من رؤية دينية ، مثلت محاولة لتقديم تبرير لتدوين الرسائل ، فإنها اعطت دليلا قويا على حيوية ثقافة السكان الأصليين ، وقدمت البرهان على ممانعتها العالية ليس لهيمنة ثقافة الفاتحين فحسب ، بل ولهيمنة ثقافة اليونان أيضا ، بكل ما تحمله من رصيد عقلي وعلمي كبير ، ونحن هنا لا نحاول ان نشيد بهذا الأمر ، لان رفض ثقافة اليونان المتقدمة ، يشير الى علة عقلية والى

---

[١٠٣] . طرح ذلك في تقديمه لرسائل أخوان الصفا بتصحيح خير الدين الزركلي (مصر ، ١٩٢٨) ، ص ٧ – ٨ .

[١٠٤] . ماجد فخري ، تاريخ الفلسفة الأسلامية ، ترجمة : كمال اليازجي ، (بيروت ، ١٩٧٤) ، ص ٢٢٦ .

[١٠٥] ، طرابيشي ، العقل المستقيل ، ص ٢٧٧ .

فشل في استيعاب المنهج العقلي ، فضلا عن كونه نوعا من التزمت الفكري ، ومن ثم فإن ما أردناه هو ايضاح ملابسات فشل النزعة العقلية وتوابعها الفكرية .

٤- الفلاحة النبطية : اثير جدل كبير حول اصالة هذا الكتاب وزمن تدوينه ، فبينما رأى خولسون ان هذا الكتاب قديم ويعود الى جذور رافدينية ، إذ شاطره في ذلك جورج طرابيشي [١٠٦] ، أنكر آخرون ذلك ، بل ونفى بعضهم أصالة هذا الكتاب او حتى صلته بحضارة وادي الرافدين ، إذ انحاز الى هذا الرأي معظم المستشرقين الذين تناولوا هذا الامر ، وابرزهم : ايفالد ونولدكه ونلينو وبروكلمان ومانسنيون وكوربان ، مع بعض التفاوت في تفصيل ذلك ، بل شكك بعضهم حتى بمؤلف الكتاب ابن وحشية ، عادين الكتاب من اختراع ابو طالب الزيات الشيعي ناقل الكتاب عن ابن وحشية [١٠٧]، اما مغزى الكتاب ، فقد أجمع غالبية الباحثين على ان له مغزى آخر غير المغزى المعرفي البائن ، وان الهدف الاساس له ربما له علاقة برغبة النخبة المثقفة للسكان الأصليين في الانتقام لما جرى لقومهم من إذلال على يد العرب ، أو ربما رمز الكتاب بشخوصه وأطروحاته الى العلاقة السائدة آنذاك بين العرب والنبط ، بحيث يمكن القول انسياقا مع (غوتشميد) ان مؤلف الكتاب قصد " بحكم الكنعانيين الاجنبي الجاثم على بابل ، الحكم العربي ، وعنى بدين الاشيتيين الخرافي المتسلط على أرض الرافدين ، الاسلام ، كما عنى بخلفاء اشيتا من السدنة الاشرار ، الخلفاء العباسيين انفسهم " [١٠٨]، على اننا لا نتشاطر الرأي في ان المقصود بذلك العرب وحدهم ، بل ربما قصد الكتاب أشياء أخرى أهمها :

---

[١٠٦] ، المعلومات عن هذا الكتاب أخذت من جورج طرابيشي وكتابه العقل المستقيل في الأسلام .

[١٠٧] . طرح هذا الرأي أكثر من كاتب منهم ماسينيون ، ينظر : طرابيشي ، العقل المستقيل ، ص ١٨٢ .

[١٠٨] . طرابيشي ، العقل المستقيل ، ص ١٨٤ .

أ- الشعور القومي للسكان الأصليين بإبراز فعاليتهم القديمة ودورهم التاريخي العريق ، ومحاولة إنهاضهم بإزاء التهميش والاذلال الواقع ضدهم ، لاسيما اشارته الى تجاهل النصارى لأصلهم النبطي ، وانصرافهم للاعتزاز بأرومة أخرى هي أرومة الروم ، لإنه عد ذلك إستهانة بأصل النبط وبدورهم [١٠٩].

ب-اراد ابراز تميز النبط عن الفرس ، بعدما اخذ العرب بنسبة القوميتين الى أصل واحد هو الأصل الفارسي ، وربما أدعى بعض النبط ذلك أيضا نكاية بالعرب ، لما للفرس من نفوذ سياسي قريب العهد من حكم العرب ، الامر الذي جرح كبرياء مثقفي النبط ، ومنهم مؤلف الكتاب ، لأنه يرى بأن الكثير من المعارف والعلوم المنسوبة للفرس هي في الواقع علوم ومعارف نبطية ، بل ان تراث الفرس هو في جزئه الأكبر تراث نبطي ، وما ميزتهم الا لكونهم الحكام قبل مجيئ العرب ، ولعل مما يدعم شهادته هذه ، انطلاقها من حس لا يتجاهل دور الفرس او تراثهم [١١٠].

ث-نيل احترام العرب ، وهو أمر يعدو جليا بعرض الكتاب لتراث النبط وما قدموه في مسار الحضارة من علوم ومعارف مهمة ، خصوصا وهو يلاحظ استهانة الاخرين بهم ، ومحاولة نكران ما عندهم من فضائل ، وهو يرى بأن العرب يجب ان يكونوا من أكثر المتحمسين لإظهارها ، لما بين القومين من روابط لا يجهلها كلاهما ، وفي هذا يقول : " لو نقلت هذه الكتب او بعضها الى العربية ... لعرفوا منهم واضعوها ، ولكبروا في نفوسهم وعظموا عندهم ... لعلهم ينتهون عن ثلب النبط " [١١١]

د- رغبة الانتصار لتراث المنطقة الحضاري ، فالنبط والعرب والفرس والقبط والشاميون ، هم بالنهاية ابناء لمنطقة واحدة ، ما يطرح ان يكون هناك دافع لا شعوري خلف بعض مضامين هذا الكتاب ، لاسيما فيما يتعلق بالعلاقة مع تراث

---

[١٠٩]. المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
[١١٠]. المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
[١١١]. طرابيشي ، العقل المستقيل ، ص ١٩٧ .

اليونان ، لان التراث الرافدي العريق كان بلا شك التراث الراجح في هذه المنطقة في العصور القديمة ، فيما اليونانيين هم ابرز من تحدى هذا التراث ونافسه ، لذا لا غرابة في ان تبرز نزعة عداء لإسهام اليونانيون الحضاري ، وليس لهم كعرق ، وفي ذلك يقول مؤلف الكتاب الاول (قوثامي) في معرض رده على طامثري المؤلف الكنعاني ، الذي يتمحور على الرد عليه مضمون الكتاب : " أقول لجيرانك اليونانيين الذين لولا كراهيتي ان أسب أحدا لقلت أنهم كالبهائم! وان كان قد خرج منهم أفاضل فانهم يفتخرون على أهل اقليم بابل. " [١١٢]

ومن ثم نحن لا نميل الى عد هذا الكتاب منحول بالطريقة التي وصف بها ، فقد يكون هناك جدل حول زمن تدوينه او حول شخصية مؤلفه ، لكن ليس هناك جدل حول نسبة المعارف الزراعية التي يتضمنها الكتاب إلى أصل عراقي ، مثلما لا يمكن تجاهل وجود مؤلفات زراعية أيضا ، لأن المؤلفات الزراعية قديمة قدم حضارة وادي الرافدين ، ما يدعونا لأن نرجح ان المضمون الزراعي للكتاب هو فعلا من التآليف القديمة ، الا ان بعض الآراء والطروحات المحشوة فيه ربما يمكن نسبتها للواضع الأخير للكتاب ، سواء أكان هذا الواضع ابن وحشية ام الزيات نفسه ، خصوصا وان الغرض من الكتاب في صورته النهائية ، ليس ايضاح العلوم والمعارف الرافدينية فحسب بل ومواجهة الظلم العرقي الواقع ضد مبدعي هذه العلوم ، أما أهم ما يؤكده هذا الكتاب ، بل وجملة الكتب التي اشير على انها مؤلفات نبطية قديمة : ان هناك جهد يمارسه بعض المثقفين الوطنيين ، لإحياء التراث الحضاري للسكان الأصليين وعرضه للآخرين ، وهو ما يؤكد طرحنا عن فعالية النزعة الرافدية في هذه المدة من التاريخ الاسلامي .

---

[١١٢] . المصدر نفسه ، ص ٢١٣ .

الفصل الخامس

العقل العراقي

تعد هذه المرحلة آخر مراحل تكوين العقل العراقي ، وفيها أكتمل تكوين هذا العقل بعد أن مر بالمراحل الثلاثة : مرحلة التأسيس ومرحلة التحدي ومواجهة الضد ومرحلة التكوين التي واكبت الفتح العربي الاسلامي للعراق وما نتج عن ذلك من أحداث أسهمت في وصول العقل العراقي إلى مرحلته الراهنة ، إذ تمثل أهم مظاهر هذه المرحلة بما يأتي :

١- الأنغلاق الفكري

التطورات السياسية التي شهدتها الدولة العربية الاسلامية ، كان لها انعكاس مباشر او غير مباشر على مسار الحركة الفكرية الاسلامية ، فكل تغير سياسي كان يواكبه تغير فكري او ثقافي ، الامر الذي يثبت أثر السياسة في هذا الأمر ، واذا كان الصراع حول الحقوق هو البداية لسلسلة الصراعات الفكرية الاسلامية ، فإن حضورية الاسلام لم تكن مؤثرة لتساند هذا الطرف او ذاك ، لان كل الأطراف كانت تتصارع من أجل فرض هيمنتها على الساحة الإسلامية وليس لدوافع دينية ، ولأن التعاليم والمبادئ الاسلامية لم تكن مدونة في بداية الصراع ، ولظهور حركات عربية مناهضة للحكم العربي الإسلامي ، فقد ظهرت فرق حملت الاسلام عنوانا لحراكها ، لكنها حملت في جوهرها كل قيم ومفاهيم جذورها السابقة ، الأمر الذي دفع السلطة الى تدوين وتأويل النصوص الاسلامية بما يوافق منهجها ورؤيتها في الحكم ، حتى تكون ظهيرا لها في جدالاتها الدينية مع خصومها ، وبمرور الوقت ونتيجة لاستمرار الجدل الفكري وتتابع محطاته ، أخذت مضامين الفرق واشكالها تتغير تدريجيا ، الامر الذي ادى في النهاية الى رسوخ المبدأ الاسلامي ، بحيث

يمكننا عد المعتقد الاسلامي الذي نعرفه الان ، نتاجا لتلك الرحلة الجدلية المرهقة ، وليس للشكل الأول له ، ومن ذلك الوقت والى الان ، لم يحصل تغيير مهم في الشكل الاسلامي ، ولم تبرز تطورات او حركات فكرية جديدة ، الامر الذي يدل على انتهاء المعركة الفكرية ، وبروز تيارات هي ابعد ما يكون عن التغيير أو التطور ، فقد تحول التيار العربي بالتدريج الى تيار سلفي ، كل ما يهمه الحفاظ على الشكل الاسلامي ، يقول ابن تيمية أهم ممثلي هذا التيار عن أهمية الأحاديث والأخبار المنقولة عن السلف : " هذه الاحاديث ، هالتنا ام لم تهلنا ، بلغتنا ام لم تبلغنا .. انا نقبلها ، ولا نحرفها ، ولا نكيفها ، ولا نعطلها ، ولا نتناولها ، وعلى العقول لا نحملها، وبصفات الخلق لا نشبهها ، ولا نعمل رأينا وفكرنا فيها ، ولا نزيد عليها ، ولا ننقص منها ، بل نؤمن بها ، ونكل علمها الى عالمها ، كما فعل السلف الصالح ، وهم القدوة لنا في كل علم" [١١٣] ، اما التيار الشيعي ، فقد تحول نحو تقديس بعض الرموز الاسلامية ، في رؤية فكرية مضادة لمبدأ عدم التقديس الذي تطرحه تيارات أخرى ، الأمر الذي وضعه في إطار التشكيك والتكفير من بعض الفرق الأخرى ، والشيء نفسه يصح فيما يخص الخوارج ، إذ انقرضت معظم تياراتهم الصدامية ، وبقي التيار الذي يؤمن بالحوار والاندماج في المبدأ الاسلامي ، وهو التيار الإباضي الذي يوجد في عُمان ، اما المدة الزمنية التي حدث فيها هذا التطور ، فليس هناك في الواقع حدود صارمة لها ، لكن يبدو ان العصر البويهي مثل الحد الاول لهذا التحول الكبير ، إذ وجدنا ان البويهيين المنسوبين على التيار الشيعي ، لم يحدثوا أي تغيير في مسار الدولة الاسلامية ، على الرغم من قدرتم على ذلك ، بعد سيطرتهم على بغداد ، وكذا الحال فيما يخص الأمارات والقوى الاخرى ، التي كانت تتسابق رغم قوتها ورخائها على نيل رضى الخلافة ، والتنعم بإعترافها ، ولذلك لابد ان نرد على

---

[١١٣]. يعد ابن تيمية الحراني (لانه ولد في حران) المتوفى سنة ٧٢٨ هـ من اقطاب المذهب الحنبلي هو وتلميذه ابن قيم الجوزية ، إذ عاشا في ظل الصراع المغولي ـ المملوكي ، ابن تيمية ، نقض المنطق ، تحقيق : محمد بن عبد الرزاق وسلمان بن عبد الرحمن الضبيع ، (القاهرة) ، ص ١٥٠ ــ ١٥١ .

أولئك الذين حاولوا تحريف الحقائق ، بعد الدافع المذهبي أو الطائفي ، الدافع الاساس للصراع العباسي- البويهي ، فهؤلاء يتغاضون عن حقيقة ان الصراعات من هذا النوع لا يتحكم بها الا العامل السياسي ، والشيء نفسه يصح فيما يخص الصراعات التي نشبت فيما بينهم ، فهي صراعات سياسية محضة ، بدليل ان البويهيين خلصوا الخلافة من سيطرة المغامرين والعسكريين التي دامت عشرات السنين [١١٤] ، كما انهم بذلوا جهدا كبيرا في الدفاع عن حياضها سواء أكان ذلك ضد الإمارات المتمردة على سلطتها ام ضد القوى التي ارادت اسقاطها ، مثل : القرامطة والحمدانيين والفاطميين ، علما انه هذه القوى تنتمي إلى التشيع ، اما ما أشيع عن ولائهم للعلويين ، فهو غير صحيح ، إذ لو كانوا كذلك ، لأستغلوا فرصة سيطرتهم على بغداد في نقل الخلافة إليهم ، وهو ما لم يحصل أبدا في مدة حكمهم ، فضلا عن قيامهم في مرات عدة بممارسة التضييق على الشخصيات العلوية ، الذي ينم عن رغبة في حماية حكم العباسيين من أي خطر قد يشكله تنامي نفوذ العلويين ، كما هو الحال عندما اقدم عضد الدولة البويهي على اعتقال مقدم العلويين محمد بن عمر بن يحيى قبل ان يطلقه شرف الدولة ، ثم يعاد اعتقاله مرة اخرى في عهد بهاء الدولة الذي صادر أيضا جميع امواله [١١٥] ، لكن يبدو ان ضعف البويهيين قد مهد السبيل لإتخاذ العباسيين إجراءات داعمة لحكمهم ، لا سيما وقد ادركوا ان انتمائهم لتيار أهل العراق غدا خطرا عليهم وان الدافع الفكري أصبح من الامور التي تثير المخاوف ، فكان تقربهم الشديد من التيار الآخر مثل رد فعل طبيعي لهذه المخاوف فضلا عن ضعف سلطة الخلافة ، حتى ليبدو ان ضعف هذه السلطة قد ساعد على رسوخ الإسلام أكثر ، بعد ان وجدت الامارات والقوى الأخرى نفسها في حل من الرضوخ لهذه السلطة ، فيما أصبح تبنيها للإسلام أمرا ضروريا لبقائها ولإستمرار شرعيتها ، ومن أهم الإجراءات التي اتخذها العباسيون لدعم سلطتهم ، قرار الخليفة القادر بالله

---

[١١٤] . فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، (بيروت ، ١٩٧٩) ، ص ٩٦ – ١٠٣ .

[١١٥] . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١١ ، مراجعة التحقيق : عبدالقادر الأرناؤوط ، (قطر) ، ص ٣٢٧ .

٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ المسمى (الاعتقاد القادري) منع نشوء أي مذاهب جديدة ، بعد أن أزداد كثيرا نشوء المذاهب والفرق الدينية ، الذي بات يهدد وحدة الدولة والمجتمع ، عادا المذاهب الموالية للعباسيين او التي تعترف بسلطتهم ، المذاهب الشرعية الوحيدة في الدولة ، وهي المذاهب المرتبطة بالتيارات الثلاث : المذهب الحنبلي المنبثق عن التيار العربي ، وكل من المذهب المالكي والمذهب الشافعي المرتبطين بتيار الشام ومصر ، فضلا عن المذهب الحنفي المرتبط بتيار أهل العراق [١١٦]، لذا ليس من الصحيح القول ان العباسيين استعانوا بالسلاجقة الاتراك للتخلص من سيطرة البويهيين ، لأن للسلاجقة أطماعهم المعروفة في بغداد ، وحتى نصرتهم للخليفة لم تأت الا لدعم سلطتهم التي هددها متغلب جديد هو أبو الحارث البساسيري ، الذي كاد يطيح بالدولتين العباسية والبويهية معا ، وعندما طلب الخليفة نصرة السلاجقة لم يكن يروم استبدالهم بالبويهيين ، بدليل انه غضب لقيام السلطان السلجوقي طغرل بك باعتقال الملك الرحيم ابي نصر بن ابي كاليجار البويهي ، وعد الامر تحديا لسلطته [١١٧] ، كما تصدى أهل بغداد للجيش السلجوقي ، الذي يبدو انه أمعن في تدمير المرافق والمنشآت المدنية ، وحرق الكتب ، لاسيما تلك التي لها علاقة بتيار أهل العراق ، ما دعى أهل بغداد الى مواجهته بشكل قوي حتى قيل ان الخليفة القائم بأمر الله قد أبدى إنزعاجه مما حصل [١١٨] ، أما موقف السلاجقة من المذاهب الفكرية السائدة في عصرهم ، فهو مشابه لموقف أي سلطة أخرى ، من السعي إلى تبني ما يوفق ما بين الرؤى والأفكار المتبناة من قبل رعايا تلك السلطة ، إذ يظهر ذلك من خلال تبنيهم لمذهب الشافعية الفقهي فضلا عن الفكر الأشعري ، حتى وصل دعمهم لهذا المذهب حد عد الوزير نظام الملك وزير السلطان ملك شاه حاميا للشافعية والاشعرية ، الذي يظهر جليا من بناءه لعدد من المدارس التي اقتصر التدريس فيها على المذهب الشافعي- الاشعري ، مثل : المدرسة النظامة في بغداد ، ونتيجة لذلك

---

[١١٦]. ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ١٥ ، ص ٢٧٩ – ٢٨٤ ؛ الكثيري ، السلفية بين أهل السنة والإمامية ، (بيروت ، ١٩٩٧) ، هامش ص ٦٢٩ .

[١١٧]. ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٩ ، ص٦١٠

[١١٨]. المصدر نفسه ، ص٦١٣

تعرضت المذاهب الاخرى الى اضطهاد عنيف لا سيما المذهب الشيعي ، اما الحنابلة فعلى الرغم من عداء السلاجقة لهم فقد كانوا اقوياء الى درجة هددوا اكثر من مرة سلطانهم السياسي ، أخطرها في سنة ٤٦٩ هـ التي عظم فيها " أمر الحنابلة وقويت شوكتهم ، وصاروا يكبسون من دور القواد والعامة ، وإن وجدوا نبيذا أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا في البيع والشراء ، ومشى الرجال مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو ؟ فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة ، وشهدوا عليه بالفاحشة " [١١٩] ، إذ لم يستطع السلاجقة القضاء عليها إلا بجهد جهيد ، ولم يبق السلاجقة محتفظين بهيبتهم الحربية طويلا ، اذ هدهم الضعف بتأثير الهجمات الصليبية من الغرب وهجمات الشعوب التركية من الشرق ، فضلا عن الانقسامات التي شهدتها دولتهم والتي نتج عنها ظهور العديد من الدويلات السلجوقية والامارات التابعة لها ، لكن الخطر الأكبر الذي واجههم ، تمثل بشكل خاص بظهور الدولة الخوارزمية على أطراف حدودهم الشرقية ، الأمر الذي حرك جذوة التمرد لدى الخلفاء ، وأشعل في نفوسهم الرغبة في الاستقلال والتخلص من الوصاية السلجوقية ، ومن أهم المحاولات التي قام بها الخلفاء العباسيون في هذا الأتجاه ، محاولتي كل من المسترشد وابنه الراشد اللتان لم يكتب لهما النجاح ، إذ أدتا الى تعرضهما للاغتيال بعد ان اعتقلهم السلاجقة في ايران [١٢٠]، لكن هذا الامر لم يمنع الخلفاء الآخرين من الاحتذاء بهم وسير سيرتهم ، حتى نجح المقتفي لأمر الله أخيرا من إستعادة استقلال الخلافة ، لكن طموح العباسيين لم يتوقف عند ذلك الحد بل سعو أيضا للقضاء على السلاجقة بشكل نهائي ، إذ تحقق ذلك بعد تحالفهم مع الخوارزميين ، ومع ان العباسيين قد أستعادوا سلطتهم و تمتعوا بقدر واسع من النفوذ على رعاياهم ، إلا أنهم سرعان ما واجهوا تهديدا جديدا ، وهو التهديد الذي مثله المغول الذين لا يدينون

---

[١١٩] . أبن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٨ ، ص ٣٠٧ .

[١٢٠] . حول مقتل الخليفة المسترشد بالله ينظر : المصدر نفسه ، ج١١ ، ص ٢٧ ، وحول مصرع الخليفة الراشد ينظر : شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٦ ، تحقيق : حسين نصار ، (القاهرة) ، ص ٣٥٢ .

بالديانة الأسلامية ، الأمر الذي جعل الخلافة في حالة إستنفار و ترقب لما سوف تؤول إليه الأحداث ، لقد دخل الصراع المذهبي على الخط في تفسيره للمخاطر التي واجهت البلاد أنذاك ، ففي حين عد أبن الاثير الخليفة الناصر لدين الله مسؤولا عن مجيئ المغول إلى البلاد الإسلامية على خلفية خلافاته مع الخوارزميين[١٢١] ، أتهم السنة ، الشيعة ، بإنهم هم الذين ساعدوا المغول على احتلال بغداد ، انطلاقا من مشورة الداعية الشيعي نصير الدين الطوسي لهولاكو وحثه له على قتل الخليفة ، فضلا عما قيل من خيانة الوزير مؤيد الدين بن العلقمي ومراسلته للمغول ، لكن بغض النظر عن الأتهامات المتبادلة فيما يخص الطرف الذي ساعد المغول على الهجوم على بغداد والبلاد الإسلامية الأخرى ، فإن المغول لم يكونوا في حقيقة أمرهم بحاجة إلى مساعدة أي طرف كان ، بل كان كل همهم توظيف الخلاف السني – الشيعي لخدمة مشروعهم السياسي ، ولم يكن حكم المغول لبغداد على شاكلة دخولهم إليها ، إذ أتسم بقدر من المرونة ، ويعزى ذلك على ما يبدو لدخولهم المبكر للإسلام ، حتى انهم وقعوا تحت تأثير التناحر الطائفي ، إذ حاول كل من الشيعة والسنة بل وحتى الطوائف الأخرى كاليهود والمسيحيين جذبهم اليهم ، وفيما أسلم بعضهم على المذهب السني أسلم آخرون على المذهب الشيعي ، وحاول كل منهم ممارسة دوره المذهبي على أكمل وجه ، ليصل الامر بأحدهم حد الرغبة بغزو المدينة ونبش قبور الخلفاء ابو بكر وعمر [١٢٢] ، لكن ازهى مراحل الصراع الطائفي هي تلك التي واكبت ظهور الدولتين العثمانية في آسيا الصغرى والصفوية في إيران ، لقد نتج عن احتلال الصوفيين - وهم من العنصر التركماني الشيعي - لبغداد عام ١٥٠٨ ، م وضع دولي جديد ، تمثل بمحاولة كل من العثمانيين والصفويين فرض سيطرتهم على هذا البلد ،

---

[١٢١] .وفي هذا يقول ابن الاثير: " وكان سبب ماينسبه العجم اليه صحيحا من انه هو الذي اطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك ، فهو الطامه الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم " وكما هو واضح من هذا النص ، فأن قضيه دعوه المغول قد أصبحت جزءا من الصراع بين الطوائف سواء كانت هذه المعلومات صحيحه ام لا ، لأنها قد لا تكون الا جزءا من دعايه هذا الصراع لا نتيجه احداث حقيقيه ، فيصل السامر ، أبن الأثير ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ١٤٣

[١٢٢] . عباس العزاوي ، العراق بين احتلالين ، ج١ ، (بغداد ، ١٩٥٦) ، ص٤٠٧ .

وذلك لما يمثله لهم من اهمية دينية ومعنوية ، ونتيجة لذلك حاول كل منهم إستغلال العامل الديني لمصلحته ، الأمر الذي أدى إلى إنقسام تيار أهل العراق إلى مذهبين متصارعين هما المذهب الشيعي والمذهب الحنفي ، إذ ما أن سيطر الصفويون على بغداد حتى بنو أضرحة أئمة الشيعة وهدموا ضريح الأمام أبي حنيفة النعمان ، أما العثمانيون فبالنظر إلى إنتمائهم لمذهب الأمام ابو حنيفة النعمان فقد كان عليهم إستعادة المكان الذي يأوي ضريحه ، وهو ما تجلى بإحتلالهم لبغداد عام ١٥٣٤ م ، وقد نتج عن الصراع العثماني ـ الصفوي الكثير من الخسائر والآلام ، فبحسب حنا بطاطو قتل الصفويون عند دخولهم بغداد عام ١٦٢٣ الآلاف من السنة ، وحصل الامر ذاته عند دخول العثمانيون عام ١٦٣٨ إذ قتلوا الآلاف من الشيعة ، ويبدو ان الدولتان كانتا تقومان بذلك في كل مرة يتحاربان فيها ، الأمر الذي دفعهما إلى إجراء تغييرات كبيرة في نسق المذهبين لتلاءم أجواء الاحتراب السائدة آنذاك ، حتى غدى المذهب الحنفي المعروف بتساهله واعتداله وكأنه يميل الى العنف ، فضلا عن عده المسلمين من غير السنة خارجين عن الإسلام ، أي مثلما كانت تفعل بعض الفرق المتطرفة ، أما الدولة الصفوية فعملت على ذلك منذ نشوئها ، فأقدمت على إستدعاء الشيخ علي الكركي المقيم في النجف آنذاك ، ليكون مجتهدها الذي يقوم بتطويع مبادئ المذهب الشيعي لتلائم اتجاهها السياسي ، أما أهم اجتهاداته [١٢٣] فتمثلت في :

١. لعن الجبروت والطاغوت .
٢. تجويز السجود للعبد انطلاقا من الرغبة في تمجيد الأئمة والمجتهدين والسلاطين.
٣. تجويز السجود على التربة الحسينية احتراما لذكرى استشهاد الإمام الحسين .
٤. إضافة عبارة اشهد أن عليا ولي الله في الأذان .

لكن القضية لم تكن سهلة لان المذهب الشيعي الذي نبع من الوسط الشعبي لا يمكنه ان يتخلص من سمته المعارضة بسهولة ، ولعل هذا التطور قد خلق نوعا من التباري بين محاولة السلطة كسب ولاء الوسط الشعبي ورغبة هذا الوسط في البقاء حرا بعيدا

---

[١٢٣] . انظر : علي الوردي ، لمحات اجتماعية ، ج١ ، ص٦٥ .

عن التقيد بأطر السلطة ، ولذلك بقي المذهب دائما منقسما بين طابعه الشعبي وركنه الفقهي العقائدي ، ولكن ليس معنى هذا إنهما لم يتأثرا يبعضهما نهائيا ، بل حاول كل منهما مجاراة الأخر في أحيان كثيرة ، ويبدو أن المعارضة لهذا التطور لم تقتصر على الوسط الشعبي فحسب ، فهناك مجتهد نجفي (من سكنة النجف وليس من مواليدها) أسمه إبراهيم القطيفي وقف ضد هذا التغيير ، ويبدو انه دخل في سجالات فقهية مع علي الكركي ، إذ ألف كل منهما كتبا تناقض ما ألفه الطرف الآخر ، لكن الحوزة الدينية في النجف سرعان ما تبنت هذه التغييرات وأسهمت في إشاعتها داخل الوسط الشعبي بوساطة وكلائها المتنقلين في الريف العراقي ، أما أهم حدث واجه تطور المذهب الشيعي ، فهو الذي تمثل بظهور طائفة الشيخيه التي تنتسب للشيخ احمد الاحسائي ، وهي طائفة لها آراء خاصة بشأن قضايا المذهب ، منها عدهم الأئمة الاثنا عشر عله خلق العالم ، وبإمكان الصالحين الالتقاء بهم ، وقد اعتقدوا بقرب خروج الامام و بضروره الإستعداد لإستقباله ، ما أدى الى ظهور حركتين أخريتين هما البابيه والبهائيه [١٢٤] ، وأخيرا وصل التطور مداه عندما اشتد الجدل بين الاخباريين وكبيرهم المرزا محمد الأخباري والأصوليون وكبيرهم آنذاك جعفر كاشف الغطاء ، والواضح ان الاخباريون هم من انصار السلفيه والتقيد الصارم بأخبار الرسول والأئمة الاثنا عشر ، اما الاصوليون فيرون العكس أي ان الاخبار لا تصلح لحسم القضايا الفقهيه بل لابد من الاعتماد على العقل لكي تكون المعرفه دقيقه ، والملاحظ ان المعركه سرعان ما حسمت لصالح الأصوليون ، في المقابل ذلك شهد المذهب السني ظهور حركة جديدة ، دعا إليها محمد بن عبد الوهاب في موطنه نجد أواسط القرن الثامن عشر ، ووفقا لسيرته وتنقله في البلاد الإسلامية ، ربما أطلع هذا الداعية على واقع الفرق الدينيه العراقيه أو تأثر بالصراع الاخباري الاصولي أثناء وجوده في العراق ، وقد أثارت هذه الحركة خشية السلطات العثمانية في حصول صراعات داخلية تهدد وحدة النسيج الإجتماعي في المناطق الخاضعة لنفوذها ، لا

---

[١٢٤] . انظر : علي الوردي ، لمحات اجتماعية ، ج١ ، ص ١٤٠ وما بعد .

سيما بعد الهجمات الدامية التي قام بها أنصار هذه الحركة ضد الولايات العثمانية المجاورة ، ما دعا العثمانيون إلى توجيه بعض الحملات لوقف التمدد الوهابي .

٢- تراجع حركة الأبتكار والإبداع والتطور

أما الحركة الفكرية والعلمية فإنها لم تختفي سريعا ، وذلك بتأثير المشاحنات المذهبية ، ومحاولة كل طرف نيل الحظوة لدى المغول على حساب الطرف الاخر ، بدليل أنه وخلال هذا العهد القصير المليء بالصراعات ، برز العديد من المؤرخين والعلماء ابرزهم : ابن الساعي وابن الطقطقى وابن الفوطي وابن اياز النحوي والفاروثي البصير وابن المطهر الحلي وغيرهم ، لكن مع ذلك كان هذا العصر وبحق بداية الانهيار الكبير الذي شهده الواقع الفكري الاسلامي ، فبحسب المؤرخ العزاوي هبط عدد الشعراء خلال هذا العصر هبوطا شديدا ، ووصل عهدهم في العهد التالي (الجلائري) الى نصف عددهم في العهد الايلخاني السابق ، اما في العهد التركماني (دولتي الخروف الاسود والخروف الابيض) فلم يزد عدد الشعراء المعروفين عن ثلاثة فقط [١٢٥] ، كما لم تتوقف المهاترات الدينية والمذهبية التي شهدتها بغداد انذاك ، فبعد صدور كتاب الفيلسوف البغدادي الشهير ابن كمونة اليهودي ، الذي ناقش فيه الأديان الثلاث من وجهة نظر عقلية ، هاج الناس ضده ، حتى أنهم تحركوا لكبس دار المؤلف ، لولا ان انقذه في اللحظه الاخيرة بعض علماء بغداد وعلى رأسهم مجد الدين بن الاثير ، فقاموا بتهريبه الى الحلة بواسطة صندوق [١٢٦] ، ومما برز في بغداد خلال الحقبة التركمانية ، الشاعر فضولي البغدادي الذي عرف بقصائده الطويلة ذات المعاني المتنوعة الجميلة ، والمؤرخ الغياثي البغدادي صاحب المؤلف المسمى بأسمه ، ونظرا لتوقف مدارس بغداد خلال العهد التركماني ، وتزايد الصراعات والفتن ، فقد هيمن الجهل وشاع التخلف ، حتى اصبح من النادر وجود من يحسن القراءة

---

[١٢٥] . انظر : موسوعة حضارة العراق ، ج١١ ، بغداد ١٩٨٥ ، ص١٥٨ .

[١٢٦] . المصدر السابق ، ص١٥٢ .

والكتابة ، وقد استمر الحال هكذا إلى نهاية العهد العثماني وبداية العهد الوطني أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، عندما أخذ العراق يستعيد بعض عافيته .

٣- الشلل السياسي

أدى زوال الخلافة العباسية من بغداد عام ١٢٥٨ م ، إلى سقوط الحكم الوطني في العراق ، إذ أستتبع ذلك ، وقوع العراق في شكل من أشكال الشلل السياسي دام عدة قرون ، فبعد هذا الحدث الكبير ، خضع العراق لحكم أسرة هولاكو المسماة بالإليخانية ، والتي لم يكن العراق تحت حكمها سوى ولاية تابعة تحكمها هذه الدولة من مقر حكمها في تبريز ، وعلى الرغم من قوة المغول وبطشهم ، إلا أنهم لم يستطيعوا إدارة المقاطعات التي أحتلوها أثناء غزواتهم المدمرة ، إذ كان العراق يموج بالثورات والإنتفاضات ضد حكمهم الذي لم يتجاوز القرن ، ونتيجة لهذا الاحتقان الشديد وللصراعات العسكرية السائدة في زمنهم ، فقد انهارت دولتهم سريعا ، وحلت محلها دولة مغولية اخرى هي دولة الجلائريين ، مؤسسها الشيخ حسن حاكم بغداد عام ١٣٣٨ م ، ما دعاه لخوض صراعات مريرة ضد بقايا دولة هولاكو قبل ان يحسم الامر بالنصر ، واذا كانت بغداد قد نعمت بشيء من السلام والامان خلال عهده وعهد ابنه اويس ، وشهدت المدينة بعض الانجازات المعمارية التي بقي بعضها قائما حتى الان ، مثل : خان مرجان ، الذي يعد احد ابرز معالم بغداد القديمة ، فإن خلفائهما لم يكونوا على قدر عال من الكفاءة ، فوقعت بغداد فريسة للنزاعات الاسرية ، قبل ان يداهمها الفاتح المغولي تيمورلنك بثلاث غزوات مدمرة خلال الاعوام ١٣٨٦ ، ١٣٩٣ ، ١٤٠٠ ، دمرتها إثنائها الكثير من مرافق بغداد ، وقتل الكثير من سكانها ، قبل ان تغدو هدفا لهجوم قبائل الترك القرة قوينلو (الخروف الاسود) بزعيمهم قرة يوسف ، وابنه محمد حاكم بغداد ، الذي انعم عليها بعقدين من الهدوء ، قبل ان يقتل على يد اخيه اسبان بأمر وتحريض من ابيه قرة يوسف ، وبعد

اسبان حكم فولاذ ابنه ، الذي هاجمه عمه جيهان شاه ، الذي ما إن فرض سيطرته على بغداد حتى سلمها لإبنه بيربوداق ، الذي استقل بها هو الآخر ، ورفض الخضوع لوصاية ابيه ، ما دفع الاخير لمهاجمته والقضاء عليه ، وكل ذلك وبغداد تحرق وتدمر بعد ان تتقاذفها ايدي والآباء والأبناء والعمومة ، وفي هذا العصر ونتيجة الظروف الصعبة التي مر بها الناس ، وتعرضهم المستمر للبطش والجور ، ادعى احدهم وهو محمد بن فلاح المشعشع انه المهدي ، داعيا الناس الى موالاته ، ويبدو ان دعوته قد لاقت الترحيب من سكان الاهوار ، فمدوه بالأموال وساندوه بالرجال ، وقد تمكن من ضم كل من البصرة والاحواز ، قبل ان يهاجم بغداد في عهد التركمان القرة قوينلو ، لكن محاولاته ومحاولات خلفائه باءت بالفشل ، على الرغم من نجاحاتهم العسكرية العديدة ، وبقيت بغداد ترزح تحت سطوة الحكومات العشائرية خلال هذا العصر ، حتى جاء دور الاق قوينلو (الخروف الابيض) ، التي شهدت ما شهدته سابقتها من صراعات ومشاكل ، نتج عنها فضلا عن الدمار والتخريب المستمرين ، توقف التدريس في معظم مدارس بغداد العلمية ، كالمستنصرية والنظامية ، وهجرة الكثير من الكتاب والادباء واصحاب الحرف ، فعانت بغداد طيلة عهدهم من الجهل والمرض وسيادة العشائرية ما لم تشهد مثله من قبل ، فكان الدمار الذي حل بها اكبر من ان يتم حصره بسطور قليلة ، ثم دالت دولة الاق قوينلو بعد معركة نخجوان الحاسمة عام ١٤٩٩ مع اسماعيل الصفوي ، ليأتي دور اللواذ بالدولة العثمانية واجترار دعمها ، لكن الاخير لم يمهلهم طويلا فهاجم بغداد واحتلها عام ١٥٠٨ ، مع ما ترتب على ذلك من مذابح ذهب ضحيتها العديد من الشخصيات السنية هذا ناهيك عن التخريب الذي طال العديد من قبور ائمة السنة [١٢٧] ، اما العثمانيون فقد ردوا على ذلك بالمثل فأقدموا على قتل ما في ارضهم من الشيعة حتى قدر من قتل منهم بعشرات الالاف [١٢٨] ، ثم تبعوا ذلك بهجوم كبير ضد الدولة الصفوية تحقق فيه انتصارهم الكبير في جالديران عام ١٥١٤ ، ثم أسهموا على ما

---

[١٢٧] . لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص٣٢

[١٢٨] . المصدر نفسه ، ص٣٣

يرجح في ظهور حركة استقلالية في العراق تمكن قائدها ذو الفقار من طرد الصفويين منها عام ١٥٢٧ ، لكنه وبعد نصره العظيم هذا لم يستطع ان يحتفظ ببغداد طويلا ، إذ خانه أخويه الذين قتلوه وهو يذود عن بغداد ضد الهجوم الذي قام به الصفويين الذين جاءوا لاستردادها [١٢٩] ، لكن حركة ذو الفقار وجهت انظار العثمانيين الى اهمية بغداد ومكانتها السياسية والدينية ، لذلك سارع السلطان سليمان القانوني الى التحرك بهدف احتلالها وطرد اعدائهم الصفويين منها ، فكان له ما اراد سنة ١٥٣٤ م ، ويبدو ان هذا السلطان كان من الوعي السياسي بحيث تصرف بحنكة ولباقة ، إذ اهتم بإعادة اعمار كل المراقد الدينية المخربة شيعية كانت أم سنية ، مهتما بشكل خاص ببناء مرقد الأمام ابي حنيفة النعمان [١٣٠] إذ يعد مذهبه الحنفي المذهب الرسمي للدولة العثمانية ، اما الاسباب التي دفعتهم الى اعتناق هذا المذهب فقد قيل ان العثمانيين الطامحون لأخذ منصب الخلافة ، لم يجدوا من المذاهب من يعترف لهم بذلك غير المذهب الحنفي ، الذي لا يشترط بالخليفة ان يكون عربيا ، لقد امتدت سيطرة العثمانيون لتشمل جنوب العراق اثر اعتراف شيخ البصرة راشد بن مغامس بالسيادة العثمانية ، لكن هذه السيادة لم تكن فعلية الا في حدود بعض المدن التي تقع على ضفاف الانهر ، لان المناطق الاخرى كانت خاضعة لسيادة العشائر او الحكام المحليين ، ولم يكن بمقدور العثمانيين الوصول الى كثير من هذه المناطق بسهولة ، إذ كان العثمانيون بحاجة دائمة الى استخدام القوة واظهار العضلات ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، ومن اهم حملاتهم المبكرة تلك التي قادها اياس باشا باتجاه البصرة ، وتمكن فيها من القضاء على حكم آل مغامس ، ويبدو ان النجاح الذي اصاب هذه الحملة لم يكن كاملا ، إذ اقتصر على داخل مدينة البصرة فحسب ، اذ توجب على العثمانيين القيام بحملة اخرى هذه المرة نحو اهوار الجنوب ، لكنهم واجهوا مقاومة شديدة على الرغم من القسوة التي مارسوها هناك ، ولم تثمر حملة ١٥٥٠ الا عن

---

١٢٩ . المصدر نفسه ، ٣٤ ــ ٣٥ .
١٣٠ . لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ٣٨ ــ ٣٩ .

نجاح جزئي [١٣١] ، إذ بقي سكان الاهوار يعيشون ما يشبه الاستقلال طوال ما تبقى من العهد العثماني ، على الرغم مما سببه انقطاعهم عن العالم من جهل وتخلف ، انعكست شدته على حياتهم وممارساتهم اليومية ، ولم تؤدي سيطرتهم على البصرة إلى تثبيت نفوذهم في المنطقة ، لأن سيطرتهم عليها لم تكن راسخة ، بدليل تمردها عليهم وتأسيس حكومة مستقلة فيها هي حكومة أسرة افراسياب ، التي حكمت المدينة ومحيطها من عام ١٥٩٦-١٦٦٧ ، ولم يتمكن العثمانيون من استعادتها على الرغم من الحملات العديدة التي وجهوها نحوها ،إذ قبلوا بالنهاية بالنزر اليسير من التبعية ، التي هي على العموم تبعية اسمية ، ويبدو ان هذه الامور قد شجعت بعضهم على تحدي الحكم العثماني حتى في قلب بغداد ذاتها ، فقد تمكن بكر صوباشي من الاستيلاء على بغداد وابتزاز العثمانيين على حكمها ، ولما لم يجد منهم آذانا صاغية ، راسل الايرانيين وأعلن ولاءه لهم ، الامر الذي دفع الايرانيون الى التحرك الى بغداد في عهد الشاه عباس الصفوي ، ونظرا لخطورة الامر ، اضطر القائد العثماني الى قبول عرض صوباشي والأعتراف به حاكما على بغداد مقابل ابعاد الخطر الايراني عنها ، وهنا حاول صوباشي مساومة الايرانيين بعرضه دفع تكاليف الحملة ، ولما لم يلق قبولا منهم ، قام بقتل الرسل الايرانيين والسخرية منهم ، ما أثار غضب الجيش الايراني ، الذي هاجم بغداد حتى تمكن من احتلالها بمساعدة من ابن صوباشي (محمد) [١٣٢] ، وإنطلاقا مما ذكره المؤرخ البغدادي احمد بن عبد الله ، فإن موقف محمد هذا ربما لم يكن مرتبطا بمفهوم الخيانة ، إذ اشار المؤرخ المذكور ، الى انه سمع الناس وهم يقولون : " ما سلم درويش محمد البلاد طمعا بها ، بل لما رأى من تفشي القحط والغلاء ، الذي دفع الناس لأكل حتى لحوم الكلاب " [١٣٣] ، لم ينجح الصفويين في إحتلال جميع مناطق العراق ، فقد بقيت منطقة جنوب العراق خارج سلطانهم السياسي ، بفضل وجود إمارة أفراسياب في البصرة ، فضلا عن

---

[١٣١]. المصدر نفسه ، ص٣٨ .

[١٣٢] . لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ٧٤ – ٧٧ .

[١٣٣] . لونكريك (هامش) ، ص٧٨ .

إمارة المنتفق بزعامة آل شبيب (سعدون) ، لكن يبدوا ان الصفويين قد اكتفوا بذلك ما دام هذا القدر من النفوذ يحقق لهم السيطرة على العتبات المقدسة في النجف وكربلاء ، ولم يرتضي العثمانيين فقدانهم لبغداد ، فقاموا بإرسال عدة حملات عسكرية ، توجت إحداها بإحتلال بغداد وطرد الصفويين منها عام ١٦٣٨ ، ومن ثم اتفقت الدولتان على إنهاء الحرب وتقاسم مناطق النفوذ بينهما ، وذلك من خلال عقد معاهدة زهاب عام ١٦٣٩ م .

مع ذلك بقي العثمانيون ينظرون لجارهم الشرقي نظرة ريبة ، وحاولوا قدر استطاعتهم الهاءه و إضعافه ، لكنهم هم أيضا لم يسلموا من سنة الضعف ، فضعفت سلطتهم في العراق الى حد كبير ، لا سيما بعد ظهور بعض الأسر العشائرية الحاكمة في مختلف أرجاء الريف العراقي ، لاسيما ريف الجنوب ، الذي تأسست فيه منذ القرن السابع عشر اسرة ال شبيب (السعدون) السابق ذكرها ، والتي هيمنت بشكل كامل على نواحي هذه المنطقة الى عام ١٩١٨ ، لكن أهم موقف واجه العثمانيون في العراق ، هو ظهور ولاة طموحين حاولوا ممارسة سلطتهم بإستقلالية كبيرة ، ابرزهم حسن باشا وابنه محمود باشا ، الامر الذي ساعد على نشوء حكم المماليك خلال الفترة الممتدة من عام ١٧٤٩ الى عام ١٨٣١ ، إذ تحدى هؤلاء سلطة الدولة العثمانية تحديا خطيرا ، ومارسوا استقلالية كبيرة في حكم البلاد ، لكنهم لم يتمكنوا من ادامة هذه الحالة ، ولم يستطيعوا مواجهة رغبة السلطة العثمانية في دمجهم بإدارتها المباشرة ، على الضد مما حصل في مصر أثناء حكم أسرة محمد علي باشا ، ولعل من جملة اسباب ذلك ، غياب الهوية الوطنية الجامعة ، و تشتت القوى المحلية وتناحرها ، هذا عدى عن الأسباب الأخرى البشرية والتعبوية ، لذلك لم تنجح جهود الوالي المملوكي داوود باشا في هذا المجال ، ولم يحصد ما حصده معاصره محمد علي باشا من مجد ونجاح ، وليس هذا فحسب ، بل ان بغداد ذاتها تعرضت لشتى صنوف الجحود من أهلها والعاملين فيها ، إذ بينما كان العثمانيون يحاصرون المدينة ، كانت مجموعات من سكانها وحماتها وعشائرها ، يتقاتلون فيما بينهم ،

ويتسابقون في تقديم الولاء للفاتح ونهب محلات بغداد ، حتى ان الاتراك انفسهم عندما دخلوا المدينة انشغلوا ببناء وترميم ما هدم منها ، بعد ان وجدوا ان ما خرب من مرافقها اكثر بكثير مما بقي ، وفي حكم الوالي الجديد علي رضا باشا اللاز ، تنازعت عشائر اطراف بغداد فيما بينها ، واخذت تنهب محلات بغداد ، مما اضطر هذا الوالي الى طردها خارج المدينة ، كما حصل مع عشيرة العقيل[١٣٤] ، ومهما يكن من امر ، فإن الدولة العثمانية قد أمنت على وجودها ، بعد ان حيدت أو دعمت دور المرجعية الدينية في النجف ، وأرضت الى حد ما بعض شيوخ القبائل ، ما جعلها تهتم بترسيخ نفوذها ضمن المناطق الخاضعة لسيطرتها الكاملة ، وربما وجدت في التعليم ضالتها في ذلك ، ولذلك يمكننا عد العهد العثماني الاخير ، على انه البداية الاولى لنهضة الخدمات في العراق ، ولعل أهم الانجازات التعليمة : إنشاء أول مدرسة رشدية عام ١٨٧٠ ، تبعتها مدرسة للإناث عام ١٨٩٩ ، ومدارس أخرى مهنية وعسكرية ، ثم تأسست كلية الحقوق عام ١٩٠٨ ، ما جعل التعليم يأخذ طابعا متصاعدا ، لكن هذه الاصلاحات على اهميتها ، لم تكن ذات تأثير كبير في اوضاع البلاد العامة ، لأنها كانت متقطعة ومحدودة ، وهي لم تشمل الا الطبقات القريبة من السلطة او الموالية لها ، وكانت في الغالب ممنهجة لنشر وتقوية الثقافة التركية ، لكن مهما يكن الامر ، كان لهذه التطورات التعليمية الحكومية ، دورها الكبير في انتاج طبقة الافندية ، بعد ان كانت هذه الطبقة في حكم العدم قبل ذلك ، واذا علمنا ان هذه الطبقة كانت مؤثرة وفاعلة على الأقل من خلال سلوكها وطريقة حياتها ، فقد كان لها في الواقع تأثير واضح على دفع عجلة التطور في البلاد ، وربما كان لهذه الطبقة تأثير كبير على مستقبل العراق السياسي بعد العصر العثماني ، لأنها كرست نفسها لخدمة التأسيس الجديد للدولة ، لقد تظافر الجهد البريطاني مع المساهمة التي قدمتها طبقة الافندية البغدادية في إنتاج نموذج العراق الحديث ، هذا النموذج الذي ما كان له

---

[١٣٤] حول هذه الاحداث ينظر : لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ١٠٦ – ١٠٨ .

ان يتخطى العلل الطائفية والأمراض الإجتماعية ، التي ابتلى بها الواقع العراقي منذ أمد بعيد ، فكان نموذجا محتضرا منذ البداية .

٤- غياب الهوية الوطنية

ان اهم ما يشار اليه في تاريخ العراق لهذه الفترة انه امتاز بما يلي :

أ- تعاقب الغزاة والمحتلون من مغول وتركمان وفرس واتراك ومماليك .

ب- عدم تمكن ابناء البلد من بناء أي حكومة بقدراتهم الذاتية تمثل مصالحهم وشؤونهم الخاصة .

ت-نشوء امارات وعشائر متناحرة في مختلف ارجاء البلد .

الأمر الذي يشير إلى ان العقل السياسي العراقي ، بلغ من السكون والجمود ما لم يبلغه في أي مرحله من مراحله السابقة ، ما جعل علاقة الناس بالدول المحتلة تمتاز غالبا بالحساسية والتناقض ، وان كانت هناك ايضا علاقات مصالح بين فئات من المجتمع والدول التي تحتل البلد ، وفي هذا يقول الدكتور علي الوردي : " لم يكن العراقيون يعتبرون الايرانيين او الاتراك أجانب هدفهم احتلال البلاد والانتفاع من خيراتها انما كان كل فريق ينظر الى الدولة التي تنتمي الى مذهبه كأنها حامية الدين ومنقذة الرعية" [١٣٥] ، لذا لا غرابة في ان تشهد بغداد على أثر كل احتلال اجنبي ، نوعا من انواع الانتقام الذي يمارسه الطرف المنتفع من الغزو على الطرف المتضرر منه ، وربما ادت الدولة المحتلة دورها في التأجيج لذلك خدمة لأغراضها ومصالحها ، ما يجعلنا نحيل الكثير من التدمير الذي تشهده مدن العراق خلال حالات الغزو الى هذا النوع من الصراع المرافق ، يشير المؤرخ الانكليزي (لونكريك) الى ان بغداد عانت من هجمات السلابة وقطاع الطرق الشيء الكثير ، وان معظم الخراب الذي حل فيها عام ١٨٣١ سببته القوى المحلية المتصارعة ، اما الاتراك الذين دخلوا بغداد بعد ذلك فلم يسعهم الى العمل على اعادة بناء ما خرب لكي يكونوا

---

[١٣٥] . علي الوردي ، لمحات اجتماعية ، ج١ ، ص١٥ .

قادرين على البقاء في المدينة [١٣٦] ، اما ظاهرة (الخيانة) التي ازدادت حالاتها كثيرا في العهد العثماني ، فهي تنطلق من هشاشة الوعي السياسي للفرد العراقي آنذاك ، وعدم تبلور بنية شعورية وطنية او استقرار قيمي في العقل العراقي ، ومن ثم لا يجوز لنا من الناحية العلمية على الاقل النظر الى هذه الحالات بمعزل عن الظروف او العوامل المسببة لها ، وليس من المنطقي تقييمها من خلال مفهومنا عن الخيانة ، لان ظاهرة (الخيانة) كانت تبرر وترفض حسب المزاج ، فالشيعة يعدون تعاون السنة مع العثمانيين خيانة ، والسنة يعدون مساعدة الشعة للايرانيين خيانة ، وقد ينسحب هذا الامر على الكثير من الحالات المماثلة بما في ذلك ظاهرة بكر صوباشي وابنه محمد اللذان سبقت الاشارة إليهما ، كذلك هناك ظاهرة اخرى امتاز بها العراق في هذا العصر ، وهي غياب شبه تام للولاء ما خلا الولاء الديني أو المذهبي فيما يخص سكان المدن والولاء العشائري فيما يخص سكان البادية والأرياف ، لكنه مع ذلك مازال يحن الى اصله القديم الضارب في اعماق الجذور الرافدينية ، إذ استوطن هذا الحنين في اعماق لا شعوره المكبوت ، ومع ان الفرد العراقي قد خضع لاشكال متعددة من التسلط السياسي ، الا انه احتفظ بطموحه في تشييد دولته الناضجة ، التي رأى ان يضع لها مخرجا دينيا ليسعه انتظارها وتأملها ، ونتيجة لأنواع الظلم والمعانات التي تعرض لها الفرد العراقي ، انكفأ كثيرون ضمن حدود الأهوار، محتمين بقصبها ومائها ، معتاشين على ما تجود به من الصيد او تربية الجاموس ، وربما يمكننا ان نفسر اعتماد الهوري (المعيدي) على المرأة في بيع منتجاته وارتياد الاسواق ، على انه من نتاج الخوف من التعرض للأذى ، سيما وقد اعتاد سكان الأهوار على مقاومة القوى التي تفرض سيطرتها على من حولهم ، فكان يمارس معها سياسة الكر والفر ، وربما ورث هذ الأمر من بدايات العصور السومرية عندما كان الخطر يحيق به من كل مكان ، اما بقية الشعب فقد كان عليها ان تعتاد على ظروفها المختلفة ، وان تتكيف معها انطلاقا من سنة البقاء ، ما جعل

---

[١٣٦] . لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق ، ص٣٢٣ وما بعدها .

الهم الأساسي للعراقيين ، هو في الحصول على ادنى درجة من الحياة الكريمة ، عادين ذلك غاية آمالهم .

٥- سيادة العشائرية

عانى الريف العراقي من وجود السماسرة (السراكيل) وهم الوسطاء بين المالك والفلاح ، إذ كانوا لا يتورعون عن ممارسة اساليب بشعة و مريعة في تنفيذ مهامهم ، بما في ذلك الضرب والاهانة ، وبما ان العلاقات العائلية لم تكن هي المسيطرة في كثير من المناطق ، فقد شاعت علاقات المصالح التي كونت مفهوم العشيرة الغير أبوية ، إذ تمثل كل عشيرة تجمعا من عناصر قومية ومذهبية وربما عنصرية مختلفة ، أي ان العشيرة العراقية تختلف كثيرا عن أختها البدوية ، لاسيما في مبدأها الاساس وهو القرابة ، فإذا كانت العشيرة البدوية ترتكز بشكل كبير على هذا الرابط ، فإن العشيرة العراقية بمفهومها العام كانت على الضد من ذلك لا تعبر عن نفسها الا من خلال الولاء والتحالف ، بحيث يغدو كل من يدخل نسقها ويحترم اعرافها جزءا من نسب العشيرة ، ليألفوا من خلال ذلك نسبا عشائريا طويلا ، يمتد بين الشخص الذي هو عضوها الأساس و أسم العشيرة الجامع ، الذي يمثل عنوانها التعريفي ، وغالبا ما لا يعبر هذا العنوان عن شيء حقيقي ، بل هو في الغالب ولد من الحاجة لإيجاد طريقة للتمايز بين العشائر المختلفة ، ومع ذلك لا تستقر هذه العشائر على حال واحد ، فهي تتفكك وتتجمع حسب الظروف التي تواجهها ، الأمر الذي يتضح من وجود طبقات عشائرية مختلفة تؤلف النسيج العشائري ، فالعشائر التي يتوزع افرادها دون انسجام على مساحة جغرافية كبيرة ، ربما تكون من طبقة أقدم ، إنطلاقا من عدم وجود أي سبب اخر لتمسكها بإنتمائها العشائري ، على الضد من ذلك في ما يخص العشائر المنسجمة او المتجمعة في منطقة جغرافية معينة ، فهي لا بد ان تعود لطبقة أحدث ، وفي هذه العشائر ، عادة ما تبدو المجموعات الأقدم إنتسابا وكأنها الجزء

الأصيل من العشيرة ، فيما تعد المجموعات الأحدث على انها الجزء الوافد عليها ، ونتيجة للجيشان العشائري الذي عاشه العراق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، تكونت بؤر عشائرية جديدة ، مثلت تهديدا جديا لبقايا الواقع الحضري الذي بدا وكأنه جزر متناثرة ضمن بحر العشائرية الهائج ، لكن لا يسعنا هنا الا ان نعد هذا الامر على انه تأكيد للهوية العراقية المتنحية او الخافتة ، نظرا لان المدن انذاك كانت امتدادا للواقع الاجنبي المسيطر ، سواء أكانت تلك المدن التي تشكل محور الادارة العثمانية ، مثل : بغداد والبصرة والموصل ، او المدن الدينية مثل : النجف وكربلاء [١٣٧] التي تضم مصالح ايرانية ، لقد أصبح العقل العشائري هو المرتكز الاساس للواقع العراقي في تلك المدة المضطربة ، وليس أدل على ذلك من تسلل العشائرية الى معظم ارجاء العراق ، إذ لم يعد يفصلها عن المدن الا الاسوار ، بل ان بعض العشائر تغلغلت حتى في داخل المدن ، وربما يعكس وضع بغداد خلال عهد المماليك حقيقة هذا القول ، الامر الذي دفع بعض الولاة الى التشدد بإزاء ذلك ، لكن النجاح الذي اصاب بعض هذه المحاولات ، لم يكن ليشمل تلك الاصقاع الواسعة الخالية تماما من سلطة الدولة ، والتي يسود فيها منطق القوة ، الأمر الذي جعل من الصعوبة على أي فرد من سكان المدن ، المغامرة بتجاوز أسوار المدن التي يعيش فيها ، لأن ذلك قد يفقده حياته ، حتى أن العشائرية بلغت من القوة حدا جعلها تحد كثيرا من تأثير التناحر المذهبي ، على الرغم من النشاط الكبير الذي يمارسه (المومنين) الجوالين ، وما يقومون به من دور في نشر التعاليم العائدة لهذا المذهب أو ذاك بين ابناء العشائر ، لقد اصبحت منطقة الأهوار ملاذا لكثير من العشائر الهاربة من التدجين الحكومي ، ولكنها في ذات الوقت كانت مددا تمد ما حولها بالناس العشائريين ، وفي حالات الأمان النسبي الذي يتخلل تلك الفترات المضطربة ، تنسل هذه العشائر بعيدا عن الأهوار لتمارس مختلف المهن الشائعة انذاك ، بما في ذلك مهنة الزراعة صاحبة

---

[١٣٧] . يذكر الشيخ جعفر بن باقر ال محبوبة النجفي " ان سادن مرقد امام علي في النجف كان قبل مئة سنة هو الحاكم المطلق لها " ، ينظر : كتابه ماضي النجف وحاضرها ، (صيدا ، ١٩٣٤) ، ج١ ، ص١٧٦ .

التاريخ المهني العريق في هذه المنطقة ، وربما تبدأ أيضا بالتأسي بالبدو في احتقار بعض المهن الحضرية او الريفية ، أي ان حركة الظاهرة الاجتماعية ليست بإتجاه واحد دائما ، فقد تتحول العشيرة الريفية الى بدوية والضد صحيح ، وعلى ما يبدو فإن هذه الظاهرة لا تظهر في مكان واحد ، فهي موجودة في اكثر من مكان ، لا سيما وان الواقع العشائري هو واقع فوضوي لا تتحكم به الا معايير الحاجة او الضرورة ، وليس بالمستطاع التحكم به كثيرا بغيرها ، لقد أراد الوالي العثماني مدحت باشا الحد من الظاهرة العشائرية وفرض سلطة الدولة على العشائر بوساطة أعتماد سياسة توطين العشائر وفرض نظام الطابو ، ونجح في ذلك إلى حد ما ، لكن هذا الأمر لا ينجح ويدوم إلا في ظل دولة قوية ، وللأسف لم تكن غالبية الحكومات العراقية في المستوى الذي يمكنها من إدامة ذلك ، ما جعل الغلبة للعشائرية .

٦- القصور الفكري والأدائي

أما أتسام العقل العراقي بالقصور الفكري والأدائي ، فهي أخطر سمة أتسم بها ، وهي نتاج ما عرضنا من مراحل مر بها العقل العراقي حتى بلغ مرحلته الأخيرة ، إذ يمكن تلمس هذا القصور من خلال معاينة فاعلية وظائف العقل ومبانيه الفكرية ووسائله العملية وطرقه الأدائية ، في شتى المجالات التي يعنى بها : السياسية والدينية والأقتصادية والثقافية والعسكرية والأجتماعية ، والذي يمكن تحديده بما يأتي :

أ- قصور الناحية العملية

عرفت الحضارة العراقية القديمة بطابعها العملي ، وهذا ما يمكن تلمسه من خلال النتاجات التي خلفتها هذه الحضارة في شتى المجالات الأدبية والفنية والاقتصادية والعمرانية والتي كان لها الأثر الكبير في تبوأ الحضارة لمكانتها الكبيرة بين

الحضارات الأخرى ، لكن ما نلاحظه الآن هو غير ذلك تماما ، إذ يتجه العقل غالبا إلى تبني الرؤى العاطفية والانفعالية المعطلة للفعل أكثر من إتجاهه إلى الفاعلية والعملية ، الأمر الذي أدى إلى قصور في الفكر النقدي ، وغلبة العوامل الانفعالية والعاطفية على عملية التفكير ، فضلا عن تراجع الأداء والفعل ، فقد تجد العراقي ناقدا ، ولكن ليس بالصورة البناءة ، لان عملية النقد لديه مرتبطة دائما وبشكل كبير بالعوامل الذاتية والمزاجية ، على الرغم من وجود عوامل موضوعية تحركها في العادة ، وقد تضعها في أحيان كثيرة ضمن إطار النقد السليم ، إلا أن هذا النقد لا يكون - في الغالب - فاعلا أو مؤثرا ، لعدم دوامه واختلاطه بالمعايير الذاتية لا الموضوعية ، وهكذا نجد العراقي ميال إما إلى الإفراط في تزكية النفس والتقليل من شأن الآخر أو إلى جلد النفس والذات وتضخيم الآخر ، والشيء نفسه فيما يخص الأداء أو الفعل ، فهو أداءا محدودا ومجتزءا لا يتناسب مع العوامل الدافعة أو المحركة له .

ب- قصور عمليات التحليل والتركيب

يعاني العقل العراقي من قصور في عمليات التحليل والتركيب ، بما في ذلك عجزه عن الغوص في التحليل إلى مديات مناسبة تؤدي إلى فهم مجمل أبعاد الظاهرة المعنية بالتحليل ، ما يشير إلى وجود خلل كبير يضع العقل العراقي في نطاق العقول المتخلفة ، العاجزة عن مسايرة الواقع أو النهوض بالحال إلى مستويات أفضل ، لأنه ما لم يمتلك العقل قدرة عالية على التحليل والتركيب ، لن يكون بمقدوره السيطرة على الواقع وفرض سلطانه عليه ، لا سيما وان الاكتفاء بالمظاهر السطحية يعني البقاء بعيدا عن الحقيقة ، وهذا ما يصح على التركيب ، لأن اعتلال عملية التحليل يؤدي إلى اعتلال في عملية التركيب ، والضد صحيح ، إذ يقترن بالتحليل المعمق ، القدرة العالية على إعادة التركيب أو إعادة تصنيع الشكل من خلال إعادة ترتيب ما

يتضمنه من علاقات ، أما الأسباب التي أدت إلى ذلك فأهمها : العامل الديني وما وضعه من تابوات (محرمات) كان لها الأثر الكبير في تعطيل عمل العقل ومنعه من التبحر في أمور تعد من صميم عمله كالتفكير في ماهية الخالق أو مصدر الدين وما إلى ذلك .

ت-القصور الفكري

من مشكلات العقل العراقي ، انه يبدأ عملية التفكير بحماسة كبيرة ، لكنه سرعان ما يفقد حماسته بالتدريج ، إلى أن ينحرف تفكيره أو يذوي إلى لا شيء ، وقد انعكس ذلك على تقلص نزعته إلى التخطيط للغد ، أو التفكير بالخطوات والمتطلبات التي يحتاجها الفعل ، فهو يريد الوصول إلى النهاية بدون أن يمر بأي مراحل أو يبذل الجهد المطلوب ، إذ يستعيض عن ذلك بإلتماس مختلف الوسائل السهلة ، كالتعكز على الدين ، أو التماس الحلول السحرية والخرافية ، فهناك في الواقع قدر من الإيمان بهذه الحلول موجود حتى لدى الفئات المتعلمة ، ما يؤكد وجود اعتقاد بأن مسيرة الحياة لا تخضع للمنطق الطبيعي ، إنما لابد من الاتكال على ممارسات ما ورائية تساعد على تحقيق الهدف بأقل كلفة أو جهد ، لذا لا غرابة في أن تجد على مساحة الأرض العراقية ، مراقد لمقدسين من أديان وطوائف مختلفة ، تعد بمثابة أدوات ماورائية لإسناد العقل ودعم شعوره بالإمتلاء ، فوجود هذه النزعة ومن ثم تفشيها لم يكن نتاجا فقط لتنوع الأديان والمذاهب في البيئة الاجتماعية العراقية ، بقدر ما كانت نتاجا لرؤية فكرية مغلقة وثقافة مترهلة وشخصية قلقة أيضا .

ث-قصور الأداء

من ناحية الأداء هناك نوعان من العقل : العقل النشط والعقل الكسول ، وقد ساد النوع الاول من العقل في المراحل الاولى من التاريخ ، وهي تلك المراحل التي شهدت إزدهار الحضارة العراقية القديمة ، لكن بعد قرون عدة ، ساد النوع الثاني من

العقل ، الذي تسبب في حصول تراجع حضاري كبير ، يمكن تلمسه في أكثر من مجال من مجالات الحياة ، فلا ابتكار ولا أنجاز ولا جديد ، بل الاكتفاء بما موجود من وسائل ومتطلبات ينظر لها من قبل غالبية الناس أفضل ما يمكن للعقل أن ينتجه ، كما يسود في هذا النوع من العقل التخبط و التخلف ، فضلا عن التهاون والتراخي واللامبالاة في التعاطي مع الأشياء المختلفة ، وقد تتمثل مظاهره أيضا في تقلص إلتزام الإنسان لدولته أو لتعهداته وواجباته المختلفة ، الأمر الذي يضعنا أمام واقع تنعدم فيه المعايير الموضوعية ، وتتلاشى فيه القواعد الصارمة ، لصالح قانون الهرج والمرج ، فالعبارة الأثيرة لدى العراقيين عامة ، عندما يواجه المجتمع خطب ما ، هو قولهم (الأمر لا يخصني) أو (شعليه) ، الأمر الذي يدفع إلى شيوع الأهمال والإتكالية في التعاطي مع الأشياء والوقائع .

ج- النظرة المجتزأة

تتمثل النظرة المجتزأة في العيش في الحاضر والعجز عن النظر ابعد من دائرة ضيقة ، هي حدود الواقع المعاش ، الأمر الذي يؤدي إلى أن يشهد العقل حالة نكوص مستمر ، فبدلا من أن يعتاد العقل على الشمول واستشراف آفاق بعيدة ، يأخذ بالانسحاب نحو الماضي أو نحو أعراض طفلية وبدائية ، تفقد الذهن صفائه وتوثبه ، مكتفيا بالملموس عن الغائب والمجرد ، ولذلك نجد فشلا كبيرا في تبني أفكار مبتكرة وآراء جريئة ، أو تحقيق حالة من النضوج العلمي ، وبلوغ مرحلة الاختراع ، فالعقل العراقي ومثله أيضا العقل العربي أو الإسلامي ، ميال في الغالب إلى الانغلاق على قيم وأفكار وممارسات معينة متوارثة من الماضي ، ولذلك فهو لا يعد الفشل أمرا احتماليا يحتاج إلى محاولة جديدة لتجاوزه ، بل هو بنظره إما أمرا خارجيا سببه المؤامرة ، أو داخليا سببه الخيانة ، فيما لا يعد النجاح نتاج المثابرة والجهد المبذول ، بل نتاج توفيق وهبة إلهية ، أما أطروحاته فعادة ما تكون مجتزأة ومكررة ، ولذلك

لا نجد لعقلنا من مهمة إلا استدرار المفاهيم الشائعة ، والدوران في حلقة معرفية مفرغة ، وكأن الإجابات تتكرر ولو اختلفت الأسئلة ، ورغم أن العقل العراقي هو عقل عاجز في مواجهة الأحداث والظروف المحيطة به ، إلا انه يمتلك مقدرة عالية على التبرير ، الهزيمة مبررة لأنها نتاج خيانة ، والخضوع للمستبد مبرر لأنه مراوغة وصيانة للحياة .

ح- غياب الجدل وحضور الجدال

يختلف الجدال عن الجدل ، في أن الأول لا يكون منظما أو مثمرا في العادة ، إنما يرتبط غالبا بأهداف ذاتية محضة ، عكس الثاني ، الذي يهدف إلى الارتقاء والسمو بالعملية المعرفية من خلال ممارسة الجدل البناء ، و الجدل كما طرحه هيغل ، هو التعامل مع الأشياء على أنها جزء من جدلية عامة ، بحيث لا يسعنا في النهاية فصلها عن بعض ، فيما تبرز الجدالية كشيء مناقض تماما ، لأنها تفصل الأشياء بعضها عن بعض ، وتنظر لعلاقاتها على أنها علاقات سببية محضة ، ما يجعلها بالتالي قاصرة عن الإمساك بالواقع ، الذي تتفاعل فيه الظواهر زمانيا ومكانيا ، و تتبادل التحديد والتأثير ، كذلك يعجز الجدالي عن فهم قيمة الجدال وإيصاله إلى هدفه المعرفي ، فهو بنظره ينطوي على بعد ذاتي ، عكس الجدلي الذي ينظر للجدل على انه عملية تكاملية تضع الأشياء على نسق واحد ، وتدفعها نحو غاية أو اتجاه معين ، هو في الغالب الهدف المعرفي الذي يحكم العملية الجدلية ، كذلك يبرز اختلاف المفهومين من خلال نظرتهما العامة للأشياء ، فبينما لا يفهم الجدالي التناقض إلا على انه اختلاف صميمي ، يضع المختلفين على طرفي نقيض ، نجد عكس ذلك لدى الجدلي الذي يراهما متفاعلين ومتأثرين بعضهما ببعض ، أما رؤيتهما إلى مستوى الأشياء ، فتكاد تكون مختلفة كليا ، لان الجدالي عكس الجدلي يعجز عن إدراك الفارق بين الأساسي والثانوي ، و بين المحوري والهامشي ، و بين المركزي

والطرفي ، لا بل و يستمر مسلسل الاختلاف إلى أمور مهمة أخرى ، كفهم العلاقة بين الزمان والمكان ، أو النفاذ إلى كافة مستويات وجوانب البنية (الظاهرة بمختلف أشكالها) .

خ- طغيان الذاتية على الموضوعية

من أهم سمات العقل الطبيعي ، التوازن بين الذات والموضوع ، الذي يؤدي إلى تنظيم العلاقة بين الفعل والإنفعال ، فضلا عن انضباط التفكير ، وفعالية الممارسة العقلية ، التي تؤدي إلى إغناء التجربة العقلية ، وتوسيع مدارك الإنسان ، بما يسهم في تنمية الحياة وتطويرها إلى الأفضل ، أما اختلال التوازن بين الذات والموضوع ، فأنه سيؤدي إلى اختلال في التوازن بين الفعل والانفعال ، فضلا عن سيادة النزعة العشوائية والاعتباطية في التفكير والممارسة ، مع تعطل الممارسة العقلية ، التي تشمل اضطراب مستوى الحوار ، وسيطرة الأحكام المثالية والتبسيطية ، مع سيطرة التفكير الغيبي والخرافي ، والتماس الأوهام والخزعبلات ، لتخفيف الآلام وحل مشاكل الإنسان ، ومن ثم يزداد إتجاه الممارسة العقلية للوقوع في فخ التبسيط والتعميم وإغرائهما الجدالي .

الخاتمة

نستنتج من ذلك ما يلي :

١- ان دراسة العقل العربي أو الإسلامي لا يمكنها ان تغنينا عن دراسة العقل العراقي ، لما في العراق من سمات لا توجد في سواه من البلدان العربية والإسلامية ، انطلاقا من تاريخه الطويل المعقد ، وحضارته العميقة ومشاكله الكثيرة ، ومن ثم فأن هذا النوع من الدراسات ، قد لا يقدم الشيء الكثير لنا ، وقد تضعنا في صورة ليست لها علاقة بواقعنا وأوضاعنا .

٢- أن ما نسميه بالعقل العراقي لم يظهر بغتة ، بل هو نتاج مراحل عدة بدأت بمرحلة التأسيس التي أرتبطت بالحضارة الرافدية التي كان العقل فيها نشطا وفاعلا ، مرورا بمرحلة التحدي ومواجهة الضد التي ارتبطت بدخول عناصر حضارية غريبة تفاعلت مع العناصر الأصيلة ، أي المنتجة في إطار البيئة الطبيعية و الاجتماعية ، إذ ادى التمازج بين هذين النوعين من العناصر إلى خلق بنية عقلية هجينة ، أي بنية لم يصل التمازج فيها حد الاندماج والتوافق ، بدليل ما خلفته هذه البنية من انتكاسات في مختلف الصعد الدينية والحضارية والسياسية والاجتماعية .. الخ .

٣- تعد المدة الزمنية التي ازدهرت فيها حضارة بلاد الرافدين ، المرحلة الأساس في تكوين العقل العراقي ، ففي هذه المرحلة التاريخية كان العقل يعمل وينتج أهدافه وأفكاره وأساليبه العملية بشكل طبيعي ، الامر الذي ادى إلى نشوء حضارة كبيرة وأصيلة عدت الأساس لما جاء بعدها من حضارات .

٤- المرحلة الثانية في تكوين العقل العراقي هي مرحلة التحدي ومواجهة الضد ، إذ أدت التحديات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي واجهتها البلاد في الالفين الثاني والأول قبل الميلاد إلى تكوين طبقة عقلية جديدة أخذت تدريجيا تغطي بتركيبها على الطبقة القديمة ، الأمر الذي تسبب

في جمود العقل الإبداعي وتراجع مستوى الإنجاز الحضاري مقارنة بما كان عليه الحال في مرحلة التأسيس .

٥- المرحلة الثالثة في تكوين العقل العراقي ، هي ما اصطلحنا عليها بمرحلة التكوين التي واكبت دخول العرب المسلمين إلى العراق ، إذ أدى الفتح العربي الإسلامي للعراق عام ٦٣٧ م ، إلى حصول نتيجتين مهمتين : الأولى - دخول موجة جزرية كبيرة إلى البلد ، تمثلت هذه المرة بالعنصر العربي ، والثانية دخول ديانة توحيدية جديدة هي الديانة الإسلامية ، إذ أدت هاتان النتيجتان إلى حصول إحتكاك وصراع أخذ أشكالا مختلفة بين العرب وسكان البلاد الأصليين .

٥- أما المرحلة الممتدة من منتصف العصر العباسي إلى الآن ، فهي آخر مراحل تكوين العقل العراقي ، وفيها ساد الأنغلاق الفكري ، وتراجع مستوى الأبتكار والأبداع ، مع معاناة البلد من الشلل السياسي ، وخضوعه المتكرر للسيطرة الأجنبية ، فضلا عن سيادة العشائرية وتراجع المدنية .

المصادر والمراجع

١- ابو ريان ، محمد علي ، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام ، (الاسكندرية ،١٩٨٤) .

٢- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١١ ، (مصر ، مطبعة السعادة ، بدون تاريخ) .

٣- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٩ ، (بيروت ، ١٩٦٥ / ١٩٦٦).

٤- ابن تيمية ، نقض المنطق ، تحقيق : محمد بن عبد الرزاق وسلمان بن عبد الرحمن الضبيع ، (القاهرة).

٥- إبراهيم ، زكريا ، هيغل أو المثالية المطلقة ، (دار مصر للطباعة ، د ت

٦- أركون ، محمد ، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ؟ ، ترجمة وتعليق : هاشم صالح ، ط٣ ، (دار الساقي ، دت) .

٧- باقر ، طه ، ديانة البابليين والآشوريين ، دراسات وبحوث طه باقر المنشورة في مجلة سومر ، اعداد وتقديم : حيدر قاسم التميمي ، (بغداد ، بيت الحكمة ، ٢٠٠٩).

٨- باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (بغداد ، ١٩٨٦) .

٩- باقر ، طه ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٥) .

١٠- بطاطو ، حنا ، العراق (ثلاث مجلدات) ، ترجمة : عفيف الرزاز ، (منشورات فرصاد ، ٢٠٠٥) .

١١- بوتيرو ، جان ، بلاد الرافدين : الكتابة – العقل – الالهة ، ترجمة : البير ابونا ، (بغداد ، ١٩٩٠) .

١٢- الجابري ، محمد عابد ، تكوين العقل العربي ، (دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٤) .

١٣- جلبي ، خالد واخرون ، الاسلام والعنف (الواقع وتحدي الارهاب وازمة البناء والتعليم) ، (عمان : الطبعة الاولى ، ٢٠٠٥) .

١٤- حبيب ، باسم محمد ، نقد العقل العراقي ، صحيفة الصباح العدد (٩٣٣) في ١٢ أيلول ٢٠٠٦ .
١٥- الحسيني ، خالد موسى عبد ، القانون وإدارة الدولة في وادي الرافدين ، (أطروحة دكتوراه غير منشورة) ، (كلية الآداب – جامعة بغداد ، ٢٠٠٢) .
١٦- حسين ، طه ، الفتنة الكبرى ـ علي وبنوه ، (القاهرة ، ١٩٥٣) .

١٧- الخيون ، رشيد ، الأديان والمذاهب بالعراق ، (مطبعة سبحان ، إيران ، ٢٠٠٥) .
١٨- رسائل اخوان الصفا ، تصحيح خير الدين الزركلي ، (مصر، ١٩٢٨) .

١٩- السامر ، فيصل ، أبن الأثير ، (بغداد ، دار الشؤون الثقافيه ، ١٩٨٦) .

٢٠- شايغان ، داريوش ، النفس المبتورة ، (مستنسخ) .

٢١- شتراوس ، كلود ، ليفي ، الفكر الوحشي ، (باريس ، ١٩٦٢) .
شريعتي ، علي ، العودة الى الذات ، ترجمة ابراهيم الدسوقي ، (شتا ، ٢٠٠٢) .

٢٢- الطبري ، محمد بن جرير ، تأريخ الرسل والملوك ، ج٥ ، (القاهرة ، ١٩٦٠ – ١٩٦٩) .

٢٣- الطعان ، عبد الرضا ، الفكر السياسي في العراق القديم ، ط٢ ، (بغداد ، ١٩٨٦) .

٢٤- طرابيشي ، جورج ، نقد نقد العقل العربي (نظرية العقل) ،(بيروت ، ١٩٩٩).
٢٥- طرابيشي ، جورج ، المثقفون العرب والتراث ، (بيروت ١٩٩١) .

٢٦- العبادي ، مصطفى ، العصر الهيلنستي (مصر) ، (بيروت ، ١٩٨١) .

٢٧- عجيل ، فارس ، ما يسمى بالمشكلة السومرية ، مجلة الاداب السومرية ، العدد (٢) ، (جامعة ذي قار ، كانون أول ٢٠٠٧) .

٢٨- العزاوي ، عباس ، العراق بين احتلالين ، ج١ ، (بغداد ، ١٩٥٤) .

٢٩- علي ، فاضل عبد الواحد ، سومر اسطورة وملحمة ، (بغداد ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٠) .

٣٠- عمارة ، محمد ، المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية ،(بغداد ، ١٩٨٤).

٣١- فخري ، ماجد ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ترجمة : كمال اليازجي ، (بيروت، ١٩٧٤) .

٣٢- فرانكفورت ، هنري وآخرون ، ما قبل الفلسفة ، ترجمة : جبرا إبراهيم جبرا ، (مؤسسة فرانكلين ، فرع بغداد ، ١٩٦٠) .

٣٣- كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، (بيروت ، دار القلم) .
كومونت ، امرانت ، الديانات الشرقية في الوثنية الرومانية ، (باريس ١٩٦٣) .

٣٤- كوربان ، هنري ، تاريخ الفلسة الاسلامية ، (باريس ، ١٩٦٤) .

٣٥- لونكريك ، ستيفن همسلي ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة : جعفر خياط ، (بغداد ، ١٩٨٥) .

٣٦- مطر ، سليم ، الذات الجريحة ، (١٩٩٦) .

٣٧- مجموعة من الباحثين السوفيت ، العراق القديم ، ترجمة : سليم طه التكريتي ، (بغداد ، ١٩٨٦) .

٣٨- مجموعة من المؤرخين ، موسوعة حضارة العراق ، ج١١ ، (بغداد ، ١٩٨٥) .

٣٩- مجموعه مؤلفين ، تاريخ الدوله العربيه الاسلاميه في العصر العباسي ، (الموصل ، ١٩٨٨) .

٤٠- مورتكارت ، أنطوان ، الفن في العراق القديم ، ترجمة : عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، (بغداد ، ١٩٧٥) .

٤١- النجفي ، جعفر بن باقر ال محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها ، ج١ ، (صيدا ، ١٩٣٤) .

٤٢- نكارتين ، روز ، نظام القرابين في المجتمع السومري حسب نصوص ما قبل سرجون في لكش ، ترجمه : خليل سعيد عبد القادر ، (بغداد ، ١٩٩٩) .

٤٣- نهج البلاغة ، ج٢ ، تحقيق : محمد عبدة ، (بيروت) .

٤٤- هايدل ، الكسندر ، سفر التكوين البابلي ، ترجمة : سعيد الغانمي ، ط١ (بغداد ، ٢٠٠٧) .

٤٥- هنتنغتون ، صوموئيل ، صدام الحضارات ، وإعادة بناء النظام العالمي ، ترجمه : مالك عبيد أبو شهيوه و محمود محمد خلف ، (ليبيا ، ١٩٩٩) .

٤٦- الوردي ، علي ، طبيعة المجتمع العراقي ، مطبعة سعيد بن جبير ، (قم ، ٢٠٠٥).

٤٧- الوردي ، علي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق (أربع مجلدات) ، (مطبعة ستار إيران ، ٢٠٠٥) .